خــواء الذات...

والأدمغة المستعمــرة

د. مراد هوفمان



كرم شعبان

مراجعة
د. سامح سعيد
د. عمرو شريف
د. محمد الخشت

ترجمة
عــادل المعــلم
نشــأت جعفــر

مكتبة الشروق الدولية

خواء الذات...
والأدمغة المستعمرة

الدكتور مراد هوفمان ألمانى الجنسية، درس القانون فى ألمانيا، وحصل على الدكتوراه فيه من الولايات المتحدة. عمل خبيرًا فى حلف الأطلنطى، وسفيرًا لألمانيا فى الجزائر والمغرب. تحول للإسلام فى ثمانينيات القرن الماضى، واقتنع بأن فى الإسلام حلًّا لمشكلات أوروبا، والغرب، والعالم كله. فهو كما يقول: يعرف الغرب، ويعرف الإسلام. نشرت له مكتبة الشروق الدولية:

الإسلام عام ٢٠٠٠ ـ الإسلام فى الألفية الثالثة ـ وهذه هى الطبعة الثانية من كتابه: خواء الذات والأدمغة المستعمرة، ونشرت له دار الشروق: الإسلام كبديل، ومؤسسة الأهرام: مذكرات ألمانى مسلم.

فكرة هذا الكتاب أن الانبهار بالغرب ومذاهبه الفكرية لم يعد له ما يبرره... فماذا نأخذ من الغرب، وماذا نترك؟

فهل نأخذ من أمريكا ـ مثلًا ـ أن بها أعلى نسبة مساجين لعدد السكان فى العالم؟ أو أنها تستهلك نصف مخدرات العالم؟ أو الشذوذ والجنس المباح خارج مؤسسة الزواج؟ أو تأييدها ودعمها الهائل للمشروع الصهيونى فى الشرق الأوسط؟

أم نأخذ اهتمامها بالعلم والعلماء والبحث العلمى، بما فى ذلك الميزانيات الفلكية لأبحاث البنتاجون، مما أثمر السبق العلمى والتكنولوجى لأمريكا فى مجالات عديدة. أهمها وأخطرها صناعة التسليح؟ وأن باستطاعة أى أمريكى أن ينشئ جريدة، وقناة تليفزيون، وجامعة، وحزبًا سياسيًا؟ بل ويرشح نفسه للرئاسة؟ أم نأخذ إطلاقها لحرية العمل والإنفاق الخيرى ـ باستثناء تقييد المسلمين ـ والذى يصل إسرائيل منه سنويًا مليارات الدولارات؟



خواء الـذات...
والأدمغة المستعمرة

الطبعة الثانية

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م



٧ أ شارع فريد سميكة ـ مصر الجديدة ـ أمام نادى الشمس

تليفون وفاكس : ٢٦٤٣٢٤٨٨ـ٢٢٤٠٤٨٦٨

٢٢٤١٥٨١٦ـ٠١٠١٦٣٣٧١٨

Email: <shoroukintl@hotmail.com>

<shoroukintl@yahoo.com>

http://shoroukintl.com

خواء الذات...
والأدمغة المستعمرة

د. مراد هوفمان

ترجمة
عادل المعلم
نشأت جعفر

مراجعة
د. سامح سعيد
د.عمرو شريف
د. محمد الخشت



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

هوفمان، مراد.
خواء الذات والأدمغة المستعمرة/ مراد هوفمان؛ ترجمة: عادل المعلم، نشأت جعفر؛
مراجعة: سامح سعيد، عمرو شريف، محمد عثمان الخشت.
ط٢. ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١م.
١٠٤ ص؛ ١٧×٢٤سم.
تدمك 978-977-701-043-6
١ - الاستعمار.
أ- المعلم، عادل (مترجم). ب- جعفر، نشأت (مترجم). جـ- سعيد، سامح (مراجع).
د- شريف، عمرو (مراجع). هـ - الخشت، محمد عثمان (مراجع).
و- العنوان.
٣٢٥,٣

رقم الإيداع ٢٦٨٥/٢٠١١م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-701-043-6

الفهرس

الموضوع | الصفحة

تقديم الناشر

كثيرًا ما يفتتن الناس بالأقوياء المنتصرين، وبالوجهاء الأثرياء... على مستوى الأفراد، وعلى مستوى المجتمعات والدول... يريدون أن يصبحوا مثلهم... وكثيرًا ما لا ينتبهون لعيوب ومثالب الفاتنين... وغالبًا لا يعرفون ـ ولا حتى يهتمون ـ كيف بلغوا تلك القوة وحققوا ذلك الثراء.. ويعجب كثير من الناس فى مصر وشرقنا الأوسط بما حققه الغرب من تقدم وثراء وقوة...

ولكن: كيف هيمن الغرب على العالم منذ حوالى قرن ونصف؟

نعم، يعمل الناس فى الغرب بجد واجتهاد... وهناك ديمقراطية ـ وإن كانت معيبة مريضة، فهى أفضل من استبدادنا القوى العفى ـ وهناك قانون يسرى على الجميع ـ إلا استثناءات، بينما لدينا قانون ينتهكه الأقوياء إلا استثناءات ـ ويحترمون العلم والعلماء والكفاءات ـ إلا استثناءات، ولدينا يسود الولاء والنفاق والانتهازية، فيرتفع الجهلاء والفاسدون إلا استثناءات ـ ولكن...

أولًا: عندما هيمن الغرب... لم تكن أحواله مثل اليوم... فما يعيشه اليوم هو حصاد هيمنته وليس سببها... وتلك الهيمنة قامت على عوامل رئيسية قليلة، أهمها:

- الاهتمام بالتفوق العسكرى، وسرعة، بل استغلاله الفورى عند تحقيقه.
- استباحة الآخر.. سواء كان ذلك باستباحة أرضه وثرواته الطبيعية، أو عمله وفكره، وحتى حياته، يستأصلها الغرب إذا لزم...

حدث هذا على مدار خمسة قرون، منذ بدء الثورة العسكرية (١٥٠٠)(*)، وما سماه

(*) أصدرت دار كمبريدج كتابًا بنفس الاسم: «الثورة العسكرية ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠» كتبه جيفرى پاركر وصدرت منه عشر طبعات، آخرها فى عام ٢٠٠٥.

الغرب الكشوفات الجغرافية (نهاية القرن الخامس عشر).... فاستباح الغرب الأمريكات.. وأفريقيا.. وآسيا... واستراليا... نهب الثروات الطبيعية للعالم من فضة وذهب وألماس.. واسترق هنود أمريكا للعمل كسخرة، فلما استأصل قوتهم العاملة استرق الأفارقة... فعملوا فى مناجم التعدين ومزارع القصب والقطن والدخان... وقضى على صناعة النسيج فى الهند لحساب مصانع النسيج الإنجليزية التى مثلت العمود الفقرى للثورة الصناعية... وعندما احتار الإنجليز فى علاج عجز ميزانهم التجارى مع الصين، زرعوا الأفيون فى الهند ـ التى استباحوا سلب الرسوم على كل تجارتها مع كل العالم استيرادًا وتصديرًا ـ وصدروه للصين.. فلما صادرته الحكومة الصينية، غزت القوات البريطانية الصين فيما يُسمى حروب الأفيون (١٨٣٩ ـ ١٨٤٢)، وفرضت عقوبات مالية عليها، واستولت على بضع مدن صينية ـ منها هونج كونج التى عادت للصين مع نهاية القرن الماضى ـ وفرضت معاهدات تجارية مجحفة أجبرت الصين على توقيعها.

•

كذلك، أرسلت أمريكا أسطولها البحرى بقيادة الكومودور پيرى ليفتح الأسواق اليابانية بقوة نيران البوارج فى ١٨٥٣...

هنا بدأ الغرب فى الهيمنة على العالم من شرقه لغربه...

واتبعت بريطانيا والولايات المتحدة ومعظم دول أوروپا الغربية سياسات شديدة الحمائية لاقتصادها... حتى تربعت على القمة... فبدأت المطالبة بفرض التجارة الحرة على العالم... وحتى اليوم تعيد الولايات المتحدة تلك السياسة الحمائية إذا لزم الأمر.

وعندما بدأ الأوروپيون حربهم «العالمية» الأولى، كان الغرب يحتل $\frac{2}{3}$ مساحة اليابسة فى العالم، ويسخرها ـ بمن عليها ـ لمصالحه.

ومع هذا... بدا اليوم لكل العيون أن الغرب يمر بأزمات مالية واقتصادية... وأنه يحتاج العالم لحل أزماته... ولن يحلها إلا باستباحة العالم من جديد... ثرواته الطبيعية... أمواله... طاقات عمله... ولكن بأشكال وقوانين جديدة حديثة...

وبدا لبعض العيون أن الغرب يمر بأزمة أخلاقية حضارية... لن يشفى منها إلا بأن يصيب بها بقية العالم، وهذا حل مدمر زائف، وقصير المدى.... أو بأن يغيّر قيمه وثقافته وحضارته... التى ما زالت تبهر بعضنا فى مصر والشرق الأوسط.

وفى كتابنا هذا... يستعرض الدكتور مراد هوفمان ما أنتجه الغرب من مذاهب فكرية فى القرنين التاسع عشر والعشرين... ويبيِّن زيفها....

ويختتم كتابه الصغير بجزء عن الإسلام، يرى فيه - رغم كل ما يحدث فى العالم، والعالم الإسلامى - حلًّا لأزمات الغرب، والعالم.

ويناشد المسلمين: لا تنبهروا بالزيف... خذوا من الغرب أفضل ما فيه... التقدم العلمى والتكنولوچى... ولكن ارجعوا لدينكم وخذوا منه طريقة حياتكم.

* * *

راجع ترجمة الكتاب كلٌّ من الأساتذة: الدكتور سامح سعيد، والدكتور عمرو شريف، والدكتور محمد الخشت، راجع الأول نصوص الفيزياء والرياضة، والثانى نصوص الأحياء وأبحاث الدماغ والچينات، والثالث النصوص الفلسفية.

عادل المعلم

مقدمة

شهد القرن التاسع عشر صعود ثلاثة مشروعات، ذات أهمية عالمية فى التاريخ:

* ازدهار «مشروع الحداثة» (يرجن هابرماس)، المميز بالتقدم العلمى والتكنولوچى، وأيديولوچيات العقل والمادية والليبرالية.

* صعود الشيوعية، والاشتراكية، والفوضوية اليسارية، المميزة بالمادية الجدلية والتاريخية، وتعبئة حشود البروليتاريا فى صراع طبقى بهدف القضاء على الملكية الخاصة فى العالم، وصولًا فى النهاية إلى عالم بلا دولة.

* استعمار معظم دول العالم الثالث بواسطة قوى أوروپا الاستعمارية (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، بلچيكا، هولندا، البرتغال) والولايات المتحدة.

شهد القرن العشرون انقلاب كل تلك الاتجاهات:

* عندما أخفقت الحداثة فى تحقيق وعودها الإنسانية، وأنتج العلم بعد النيوتونى شكوكًا أكثر من حلول، أصبحت «بعد الحداثة» المميزة بالنسبية، والشكوك العلمية، وأشكال جديدة من التصوف، والرفض لأجوبة عالمية، الأيديولوچية السائدة فى الغرب، بل بدأ الناس يتحدثون عن ضرورة عكس تحديث أوروپا (ريمى براج).

* بعد الوصول للسلطة فى الاتحاد السوڤييتى وأوروپا الشرقية بما فيها ألمانيا الشرقية، والصين الحمراء، وڤييتنام، وكوبا، أخفقت الماركسية اللينينية، الستالينية والمادية، بشكل مخزٍ فى المجالات السياسية والاقتصادية، حتى إن الاشتراكية كنظرية ذات مصداقية، اختفت تقريبًا من العالم بعد انهيار الاتحاد السوڤييتى.

* أدى انتهاء الاحتلال - على الأقل من الصورة الرسمية - إلى الاستقلال السياسى لكل الدول المحتلة فى جميع أنحاء العالم.

ومن الغريب، أن تستمر المستعمرات «سابقًا» فى الافتتان بالحداثة والاشتراكية الغربية، كما لو لم تكن كلٌ منها قد فقدت مصداقيتها فى الغرب فى كلٍّ من الحرب العالمية الأولى والثانية!.

لا يمكن تبرير ذلك إلا بوقوع كثير من العقول القائدة فى آسيا وأفريقيا فى أسر الافتتان بتعاليم أسيادهم السابقين، حتى أصبحوا غربيين أكثر من العديد من مفكرى الغرب(*)!.

أقل ما يقال إن هؤلاء المفكرين العلمانيين فى العالم الثالث (بما فى ذلك البلاد العربية) عملوا لاستقلال بلادهم من داخل حدود الحضارة الغربية. وبهذا، اكتملت الحلقة النهائية لاستعمار الأمة، بمجرد استقلالها.

عملية الاختراق تلك، المساة بالعولمة، لا تتعلق باختراق حدود جغرافية، ولكن بـ «السيطرة على العقول» (نادية مصطفى).

وفى الحقيقة «لم تفطم معظم البلاد العربية والإسلامية نفسها من سادتها المستعمرين» (ماهر رشدان).

بل حتى حركات الإصلاح والإحياء الإسلامية لم تستطع بشكل حاسم حتى الآن تغيير ذلك الوضع البائس.

بالطبع، عملت القوى المستعمرة بأقصى ما تستطيع لتوجيه التعليم بمسارات غربية فى المستعمرات لتربى قادة محليين يخدمون مصالحها. أفرخت الأنظمة الشيوعية طبقة محلية موجهة ماركسيًّا، وأفرخت الأنظمة الغربية طبقة محلية موجهة غربيًّا، واستمرت الطبقتان فى قيادة بلادهم ـ بعد التحرر ـ كما تعلموا تمامًا فى موسكو وكمبريدج والسوربون.

ليس من الصعب رؤية حدوث ذلك، ولكن الأصعب رؤية استعمار الأدمغة يستمر لمدة خمسين عامًا أو أكثر بعد إنهاء الاستعمار العسكرى.

لماذا لم يتعلم أولئك المثقفون (أو في الحقيقة أشباه المثقفين) حتى من أخطائهم فى تجاربهم الاشتراكية والحداثية، ناهيك عن تعلمهم من أخطاء مستعمريهم؟.

نشأت بواعث النهضة الإسلامية التى أثرت على كل العالم العربى والإسلامى منذ منتصف القرن العشرين بسبب تكرار الحكومات المستقلة حديثًا ـ غير المفهوم ـ لأخطاء الغرب.

ضاقت وسئمت الشعوب الإسلامية ـ التى غربتها القوى الاستعمارية عن تقاليدها ودينها ـ من حكوماتها المستقلة التى غالت فى إبعادها عن جوهر دينها، ربما مثل أو أكثر ـ فى بعض

(*) فى الحقيقة، تلك العقول تقود من منطلق المراكز والإمكانيات التى توفرها لها الحكومات، وبدونها لن يكون لها إلا أضعف تأثير.

الفترات وبعض الحالات ـ من حكومات الاستعمار. ولو لم تفرض حكومات الاستقلال الحلول المستوردة الفاشلة، لما رفعت الشعوب شعار «الإسلام هو الحل». ومن الناحية الأخرى، لم تضع الحركات الإسلامية برامج فعالة، بل ولم تستطع حتى تأمين وجود قانونى لها فى معظم البلاد الإسلامية.

* * *

انطلاقًا من هذه الخلفية، جاء هذا الكتاب ليشرح ـ إلى حدٍّ ما ـ لماذا فشلت الشيوعية فى العالم (الجزء الأول)، ولماذا حلت ما بعد الحداثة محل الحداثة فى الغرب، وكيف يفعل به الغرق فى الملذات الحسية (الجزء الثانى)، يلى ذلك عرض، لماذا يكون الإسلام هو الحل من المأزق الذى أدى إلى غرق ـ ليس الغرب وحده فى مطلع القرن الواحد والعشرين، بل إلى حد ما ـ العالم العربى والإسلامى (الجزء الثالث).

وفيما يتعلق بنقدى للشيوعية/ الاشتراكية، فيجدر ملاحظة أن مؤسسيها نشروا معظم أعمالهم باللغة الألمانية، لغتهم الأصلية، وهى أيضًا لغتى الأصلية، مثل: كارل ماركس، فريدريك إنجلز، إدوارد برنشتاين، رودلف هيلفردينج، كارل كاوتسكى، كارل ليبكنشت، روزا لوكسمبرج. وبهذا، فمعظم قوائم أدبيات الشيوعية باللغة الألمانية، كذا معظم هوامش المراجع باللغة الألمانية، مما يجعلها ذات فائدة محدودة لقارئ الإنجليزية.

وبما أننى نشأت فى ألمانيا المقسمة بالحائط الشيوعى، فقد كانت دراسة الشيوعية أمرًا ضروريًّا.

وفى الحقيقة، فإن جزءًا من تدريبى الرسمى كديبلوماسى ألمانى اشتمل على دراسة عميقة للمادية الجدلية والمادية التاريخية على أساس المناهج الشيوعية المطبوعة فى ألمانيا الشرقية. كانت الشيوعية أمرًا ملموسًا فى ألمانيا، وعلى هذا أستطيع القول إنى أعرف ما أتحدث عنه، وفى الحقيقة لم أندهش من انهيار الاتحاد السوڤييتى، فذلك كان أمرًا حتميًّا، والسؤال الوحيد بهذا الخصوص كان: متى؟

يزعجنى كثيرًا أن أقابل أكاديميين، فى قلب مدينة القاهرة فى أيامنا هذه على سبيل المثال، لا يزالون متعاطفين مع يوتوبيا الاشتراكية، بعد كل الفظائع التى ارتكبتها النظم التى حاولت تطبيق تلك الاشتراكية، تلك الفظائع التى يصعب تصويرها بالكلمة. أحاول إقناع أولئك الناس بأن الشيوعية سقطت ليس بسبب خطأ فى التطبيق، ولكن لأنها قامت أساسًا على مقدمات خاطئة. كان هذا واضحًا من البداية، بالطبع لمن يريد أن يبصر.

ثم أصبحت أعتقد أن أولئك المسلمين ـ الذين ما زالوا يهيمون بالشيوعية والاشتراكية ـ يجدون الراحة فى النظام الصارم الذى يعطى إجابة لكل شىء. بل ربما يقبلون الماركسية كمهرب لهم من الشكوك التى اكتنفتهم بعد أن أضاعوا يقين الإسلام. فى مثل هذه الأحوال، تحول هؤلاء المثقفون المسلمون ـ ببساطة ـ من عقيدة راسخة إلى عقيدة زائفة.

أما فيما يتعلق بمشروع الحداثة، فما أسهل أن نفهم استمرار افتتان كثير من المستعمَرين ـ سابقًا ـ بالثقافة الغربية، وتكنولوچيتها، وسر الصنعة لديها. أوليس يبدو أن التقدم العلمى والتكنولوچيا حكر على الغرب؟

ولكن الأمر الأكثر صعوبة أن نفهم لماذا نجد كثيرًا من العرب المحبين لأسلوب الحياة الأمريكية يتجاهلون عيوبها، على الرغم من الإشارات التى تنذر بوقوعها فى أزمة حضارية.

تزداد الأمور سوءًا بسبب استمرار جهل المثقفين غير الغربيين بالثورة العلمية التى اجتاحت الغرب فى السنوات المائة الماضية، فى فيزياء الجسيمات متناهية الصغر، علم الكون والفضاء، الكيمياء البيولوچية والإلكترونيات، الهندسة الوراثية والنانو تكنولوچى، نظرية الفوضى أو الشواش (الكايوس) والمجالات الأخرى. تلك الثورة التى قادها علماء مثل جوتلوب فريج، ماكس پلانك، ألبرت أينشتاين، ڤرنر هايزنبرج. لم تجعل تلك الثورة كلًّا من المادية والإلحاد بصورتيهما التقليديتين فقط من أمور الماضى العتيق التى تستحق الإغفال، بل أصبحتا غير منطقية بالمرة.

أعتقد أن كثيرًا من المثقفين العرب والمسلمين ما زالوا يتبعون ـ بتفاخر ـ اتجاهًا يعتبرونه تقدميًّا، ولكنه كان يمكن اعتباره كذلك منذ مائة وخمسين سنة، فى جوتنجن أو أكسفورد، ولكنه لا يمثل الآن سوى هامش سفلى فى صفحة تاريخ العلم.

لتوضيح تلك النقط، اضطررت لوصف التطور فى مجالات علمية عديدة بدون أن أكون خبيرًا فى أىٍّ منها، مع أن والدى كان پروفيسورًا ألمانيًّا تقليديًّا فى الرياضة والفيزياء. ولكنى أزعم أنه ليس من الضرورى أن يكون المرء كيمياويًّا أو بيولوچيًّا؛ ليتبين النتائج الفلسفية والدينية المترتبة على اكتشافاتها.

هنا دعوتى، وهى: دعونا لا نرفض الحضارة الغربية من الألف إلى الياء، فهناك الكثير الذى يمكن أن نتبناه منها، ولكن أستحلفكم بالله، دعونا نأخذ منها أفضل ما فيها.

* * *

الجزء الأول

زيف الشيوعية

ظهرت الشيوعية منذ بدايتها كنظرة شاملة للعالم كله، تشرح ـ بترابط ـ كل ظواهره. السير فى أعقاب الفلسفة المثالية لهيجل (وتصحيح فلسفته لتقف على قدميها بدلًا من الوقوف على رأسها [هذا ما قاله ماركس]). كانت الماركسية اللينينية آخر محاولة لما أسمته بعد الحداثة «القصة العظيمة».

عادة ما تم تقسيم هذا النظام إلى:

- المادية الجدلية.
- المادية التاريخية.
- الاقتصاد السياسى.

وسوف نتعامل مع تعاليم كلٍّ منها.

من الغريب أن الشيوعيين يطلقون على أيديولوچيتهم «الاشتراكية العلمية»، مما يوحى بأن الفلسفة الشيوعية يمكن تأكيدها أو نفيها بالتجربة العملية. وهذا الزعم لا يمكن ـ بالطبع ـ وصف أية فلسفة أخرى به. فلم يزعم أى فيلسوف معاصر مثل آرثر شوبنهاور، أو فريدريك نيتشه، أو برتراند راسل، أو لودڤيج ڤيتجنشتاين، أو كارل پوپر أنه يعمل على أساس علمى. وفى الواقع، فإن الفلسفة إما تقتصر على نظرية معرفة، بمعنى النقد شبه العلمى للإدراك الحسى، أو تلاحق ما وراء الطبيعة، أى تخمينات فى علم الوجود مبنية على استنتاجات منطقية، لا يمكن إثباتها.

إن زعم الشيوعيين بأن أيديولوچيتهم ذات صفة علمية مناف للعقل بشدة، مما يسم مدخلهم الذى يفخرون به بالانحراف المبدئى، بمعنى انحراف المبدأ، وبمعنى الانحراف من البداية. يزعم الشيوعيون ـ ببساطة ـ بأن لهم نظرة صحيحة، يصلون بها «أتوماتيكيًّا» إلى النتيجة الصحيحة. إذا كان ذلك «علميًّا»، فعلى العلم الحقيقى أن يغيِّر من اسمه.

• المادية الجدلية

تدور الفلسفة الطبيعة الشيوعية حول:

* أحادية المادة، بمعنى مادة واحدة تشكل كل ما فى الوجود.

* منهاج شرح تطور الكون.

تتطلب الماركسية المادية قبول النقط الست التالية:

١ ـ هناك موضوع للمادة مستقل عن وعى الفاعلين.

٢ ـ يمكن تفسير الكون دون الرجوع لعناصر غير مادية.

٣ ـ لا يوجد إله.

٤ ـ لا وجود لعالم المثال [عالم للأفكار خارج العالم الحسى (أفلاطون)].

٥ ـ لا يوجد سوى المادة.

٦ ـ الأفكار غير مستقلة عن المادة.

ليس الشيوعيون أول الماديين؛ فقد سبقهم فى المادية الفيلسوف الإغريقى ديمقريطس، والفيلسوف المادى لودڤيج فيورباخ (مات ١٨٧٢)، ولا حتى هم آخر الماديين كما سنرى.

اعتقد ماركس وإنجلز ـ كفيلسوفين واقعيين ـ أن العالم مستقل عن وعينا به، واعتبرا الوعى الإنسانى «ناتجًا، وظيفة، خاصية» للمادة.

لقد بيَّنا أن كل شيء محكوم بقانون العِلية، ومستمر فى الحركة، بدون غاية تؤدى إلى هدف. أما بالنسبة إلى العالم، فقد افترضا أنه لا علة خارجية له، لكنه موجود من الأبد. اجتنبت النظرية الشيوعية اعتراضات «داڤيد هيوم» و«إيمانويل كانت» لمفهوم العِلية، وأصبحت النظرية الماركسية فى منتهى الحتمية؛ لتحصر حرية الإنسان فى «رؤيته الثاقبة للضرورة».

سببت بدائية الماركسية المادية فى إصابة لينين ببعض الصداع، حين اضطر لشرح السببية عند بداية الكون، وهو ما نسميه الآن «الانفجار العظيم ـ Big Bang». كذلك أصابته اللاحتمية (عدم التحديد) فى المستوى تحت الذرى التى اكتشفتها فيزياء الجسيمات متناهية الصغر أثناء

حياته بالاضطراب. وسبب له القانون الثانى فى الديناميكا الحرارية وقتًا عصيبًا، فطالما كان العالم أبديًا، فلماذا لم تنخفض حرارته حتى الموت؟

وبالرغم من إصرار الشيوعية على أن المادة ـ فحسب ـ هى الحقيقة، فمع مارتن هيدجر، يمكن لنا أن نرى المادية الشيوعية نفسها ـ بما أنها تفسر الحقيقة المطلقة ـ كشكل من أشكال الروحانيات.

ونتيجة اكتشافات فيزياء الجسيمات متناهية الصغر، رأينا للمادة تساميًا إلى ما وراء الطبيعة، ما يعنى «النقض المادى للمادية» (جاستون باشلر). وعرفنا أن المادة والطاقة وجهان لشىء واحد، لدرجة أن «المادة» يمكن تعريفها بشىء لامادى دائم الحركة، شىء كان الفيلسوف الفرنسى فى عام ١٩٣٤ قد أسماه «الشىء ـ الحركة». وفى الوقت نفسه، فإن الاعتقاد السائد ذا الجذور العميقة فى قانون العِلية ـ المرتبط بشكل جوهرى بفكرة ثبات المادة ـ قد اختفى بعد أن أصبح الفيزيائيون قادرين ـ فحسب ـ على تحديد النتائج، مع استحالة معرفة الأسباب.

وبناء على الإدراك المؤخر من خلال منظور الفيزياء الكمية، ظهرت فجاجة وسذاجة المادية الماركسية ذات الطابع الميكانيكى للجاذبية أو الكهرباء على سبيل المثال، وأصبحت مضحكة فى الوقت الحاضر.

كان من الممكن الدفاع عن الماركسية بطريقة أفضل إذا كانت أعلنت اللاأدرية عن وجود الروح/ الله، اكتفاء بأنه لا يمكن إثبات وجود الله بتجربة عملية، ولكن ماركس وأتباعه ـ خصوصًا باكونين ولينين ـ اختاروا أن يفرضوا إلحادًا على افتراضات أيديولوچية عشواء.

وهم بهذا تصوروا أنهم يتجنبون النتيجة غير القابلة للرفض للفيلسوف پاسكال (مات ١٦٦٢): من الأفضل العيش على أساس وجود الله.. فإذا ثبت وجوده، فقد كسب الإنسان كل ما يمكن كسبه، وإذا ثبت عدم وجوده، فلن يخسر الإنسان شيئًا ذا قيمة حقيقية.

بالطبع كان لينين، كمهندس وفنى ونشط، ومحرك للجماهير، لا يرتاح لافتراض وجود إله يتداخل فى عمله، وكان يكره الدين فى الواقع. كذلك احتقر ميخائيل باكونين (مات ١٨٧٦) الدين والدولة بأقصى ما يستطيع من تحول للإلحاد، وكان من قبل ضابطًا من النبلاء لدى القيصر. برز باكونين كمتمرد محترف فوضوى، وكسياسى مهيج للجماهير. سمى الله «السراب» والدين «الخبل العمومى»، وقال: «طالما كان لنا سيد فى السماء، فسنظل عبيدًا فى الأرض».

بهذا أصبح الإلحاد ماركة مسجلة على الشيوعيين وكثير من الاشتراكيين، وتم اختزال الإله

إلى إسقاط بشرى، والدين أداة فى يد الطبقة الحاكمة للسيطرة على الشعب، وأفيون الشعوب، واعتبر لينين «محاربة الدين هى ألف باء المادية». وعمرت مناهج التدريس بالترويج للإلحاد العلمى بالعداء للدين. وفى الحقيقة، فيما عم الابتهاج والفرح فى شرق أوروپا بسقوط الشيوعية، فقد استمر الكثير على إلحادهم، على الأقل فى الممارسات العملية.

لكل ما سبق، لا يمكن توافق الإسلام مع الشيوعية، حتى لو ادعى ذلك أحد فى الشرق الأوسط، ولم يكن إظهار الاحترام لمحمد ﷺ من بعض الشيوعيين إلا على سبيل التظاهر، وباعتباره مجرد مصلح اجتماعى. ومن ذلك المنطلق، جاءت كتابات المستشرق الفرنسى اليهودى اليسارى ماكسيم رودينسون «La Fascination de L'Islam». ومن المثير للاهتمام أن نقاد المسيحية الرئيسيين ينظرون النظرة نفسها للمسيح، فيختزلون المسيح إلى مصلح اجتماعى يثير الإعجاب.

حتى يمنع مفكرو الشيوعية الاحتياج لإله كسبب أولى للكون، زيَّنوا فكرة قانون العِلية باستخدام مبدأ الجدلية المفترض أنه كامن فى الطبيعة... يتطور الكون، تبدأ الحياة، تظهر الأنواع.. كل ذلك نتيجة الجدليات. اقترضوا «من الفكرة ونقيضها تأتى الفكرة المركبة من الاثنين» من هيجل، ولكن هيجل يتكلم عن عالم الأفكار، فكيف يتحول ذلك لعالم المادة؟

حاول الشيوعيون فى البداية إثبات أن التغيرات الكمية فى الطبيعة تأتى بتغيرات كيفية، وأن المتناقضات هى المحرك للتطور فى المادة. نعلم اليوم أنه لم يصح ولا مثال واحد للجدلية فى الطبيعة.

لذلك فى الفترة الأخيرة من الشيوعية، توقفت محاولات إثبات الجدلية، وأصبحوا عند استعمال المصطلح لا يربطون به أى معنى، مثل كثير من المصطلحات التى تخلو من المضمون.

فى الحقيقة، أصبحت الجدلية هى روح المادية: دينها. وفى الواقع، فقد أصبحت خطرًا على أيديولوچية الشيوعية نفسها؛ لأن بمقتضاها بعد أن يتحقق المجتمع الشيوعى، فلا بد ـ بسبب الجدلية ـ أن يتغير.

ولحل ذلك، ادَّعى ستالين (مات ١٩٥٣) فى «الماركسية ومسائل اللغة» بأن المتناقضات فى المجتمع الشيوعى ذات طبيعة «لا تنافرية»، وهو بهذا سلَّم ـ ببساطة ـ بأن المنطق الجدلى لا يسرى على المجتمع الشيوعى!.

لقد انهارت فلسفة الشيوعية المادية ومعها أساسها الجدلى، قبل انهيار الاتحاد السوفييتى.

ومع ذلك، وعلى الرغم من رؤية التطور فى كل شىء بشكل لا يمكن تفاديه طبقًا لقانون السببية، والمنطق الجدلى، اتبع الشيوعيون ـ المشهورون دائمًا بأنهم نشطاء ـ الرأى الفصل الماركسى «لقد رأى الفلاسفةُ العالمَ بصورة مختلفة فقط، ولكن ما يهم هو تغييره» فعليهم أن يساعدوا التاريخ فى عالم لا يتكون إلا من مادة؟!

واحسرتاه، استعار ماركس من هيجل بالإضافة للجدلية، فكرته عن المنطق المزدوج.

بالف[illegible] [illegible]ثلما طالب پتروس داميانوس فى القرن الحادى عشر بأن تعمل الفلسفة كخادم للعلوم ال[illegible]، ميَّز هيجل أيضًا بين مجرد التفكير الثقافى، ونوع أعلى من المنطقية الجدلية التى لا يمكن تأكيدها (ومن ثم يسهل تداولها). بالتطابق، وبينما قاد هذا المنطق الغنوصى (الباطنى) هيجل إلى «تقديس» الدولة، قاد ماركس إلى نزع كل قداسة من الدولة (هانز كيلسن).

* * *

• المادية التاريخية

ليست المادية التاريخية سوى تطبيق المادية الجدلية على التاريخ وعالم الأفكار (المؤسسات والأعراف الاجتماعية، القانون، الفن، الدين... إلخ). حاول الماركسيون بوضع افتراض فوق آخر، إثبات أن التاريخ يجرى وفقًا لمعايير داخلية نتيجة لـ «وسائل الإنتاج» السائدة، وتتطور الحياة الاجتماعية كتطور الطبيعة، وتم التسليم بأن الناس قد يظنون أنهم أحرار فى تصرفاتهم، ولكن فى الواقع تتضافر جهودهم جميعًا لدفع التاريخ فى الاتجاه الحتمى لـ: مجتمع شيوعى بلا دولة، بلا طبقات، بلا ملكية، يأخذ فيه كل فرد، ليس طبقًا لإمكانياته، ولكن طبقًا لحاجاته.

يمكننا تسمية ما سبق بـ «يوتوبيا المادية» أو «فردوسها الأرضى».

هنا أيضًا نرى انعكاس تأثير هيجل «فلسفة التاريخ»؛ حيث يجده تحقيقًا للذات من الناحية الروحية.

أرادت الماركسية أن تصبح أكثر من علم الاجتماع السلوكى. لقد ادعت القدرة على شرح كل الظواهر الاجتماعية على أنها تفاعل بين القواعد (المنتجة)، وبين البنية الفوقية المنعكسة عنها.

كانت العوامل الحقيقية للتطور الاجتماعى ـ مع ذلك ـ ليست هى الأفكار، ولكن هى «الصراع الطبقى»، بين الطبقتين الوحيدتين فى الوجود، القلة التى تملك، والكثرة التى لا تملك، أى جموع البروليتاريا.

جاء وصف ماركس لعلاقات العمالة على أسس أيديولوجية أكثر منها تجريبية، فبدلًا من طبقتيه (التى تريد كلٌّ منهما القضاء على الأخرى) يمكن للمرء أن يميز بسهولة ست طبقات:

أعلى الطبقة العليا ـ أدنى الطبقة العليا ـ أعلى الطبقة الوسطى ـ أدنى الطبقة الوسطى ـ أعلى الطبقة الدنيا ـ أدنى الطبقة الدنيا.

كذلك كان يجب على ماركس أن يكتشف أن هناك عوامل أخرى تترتب عليها علاقات البشر، منها على الأقل القيم والتقاليد والعائلة.

الأشد سوءًا فى هذا السياق، هو الدافع الماركسى للصراع الطبقى، الحسد والكراهية. كيف يمكن للعالم أن يحيا حينما يصبح مثل هاتين الفكرتين السلبيتين هما العاملين الرئيسيين للتغيير؟

للشيوعية حقيقة مطلقة واحدة، هى انتصار البروليتاريا وحزبها الطبيعى فى الصراع الطبقى الممتد.

تقول المادية التاريخية إن وسائل الإنتاج هى التى تحدد التاريخ، وليس الأفكار ولا القيم ولا جاذبية القيادات الإنسانية، ولا الموارد الطبيعية، ولا المناخ، ولا كثافة السكان.

بكل تأكيد لم يتطور العالم طبقًا للنظرية الشيوعية. وهذا واضح من انهيار البلاد الشيوعية.

عبَّر ستيڤان جاى جولد الأستاذ بجامعة هارڤارد عن رأيه فى حوار معه:

كانت المادية التاريخية خطأ هائلًا عندما رأت أن التاريخ يتحدد بشكل كامل بتأثير العوامل المادية، بينما فى الحقيقة، كان التاريخ يتوقف بالمثل ـ ولدرجة كبيرة ـ أيضًا على الأفكار.

* * *

• الاقتصاد السياسى

الماركسية فى جوهرها تصور متفائل للاقتصاد مبنى على افتراضات مادية بديهية، وفى الواقع، يعتبر الشيوعيون نظريتهم الاقتصادية ليست كشكل محتمل للاقتصاد، بل الشكل الوحيد والمحتوم. ومشكلتهم أن ماركس بنى النظرية كلها على ملاحظاته فى لندن منذ مائة وخمسين عامًا، وليس من تلك الملاحظات ما هو قائم الآن. (لا يوجد مجال فى المعرفة نظرياته أكثر تغيرًا من المعرفة الاقتصادية).

المفهوم الرئيسى عند ماركس هو «فائض القيمة ـ Mehrwert»، وهى تلك التى يضيفها العمل في المنتج.

وبإهمال دور رأس المال، والعقار، زعم ماركس أن الربح الذى يحققه صاحب العمل ليس إلا أخذ فائض القيمة. حافز الربح قوى لدرجة أنه يؤدى باستمرار لازدياد غنى الغنى وإفقار الفقير (العامل) وحرمانه من «فائض القيمة ـ Mehrwert» التى أضافها هو.

سيؤدى ذلك فى النهاية إلى تراكم رأس المال فى أيد احتكارية قليلة، تضخم الإنتاج، وأزمات اقتصادية. ومنذ عام ١٨٨٠ تقريبًا، أدى ذلك إلى رأسمالية احتكارية تركزت فيها رءوس الأموال فى أيد قليلة، وانصهرت البنوك مع الصناعة والعسكرة والاستعمار. وطبقًا للينين «الإمبريالية هى أعلى مراحل الرأسمالية» (١٩١٦)، وتبدأ عند ذلك القوى العظمى الرأسمالية فى التقاتل على الحصول على الطاقة، وتقسيم العالم بينها.

خلال تلك المرحلة الإمبريالية، نرى ظاهرة الرأسمالية الاحتكارية للدولة: تحوِّل الرأسمالية المحتكرة الدولة إلى تابع خاضع يخدم مصالحها. ويرى لينين فى ذلك مرحلة انحطاط وموت الرأسمالية، وظهور الشيوعية «تجريد المستغلين من أملاكهم» (ماركس).

مرة أخرى، تتصادم النظرية الشيوعية مع الواقع:

* بدلًا من أن تخضع الدولة للمصالح الرأسمالية، اتبعت الدول الحديثة سياسات صممت لكبح الممارسات الاحتكارية (قوانين العمل، والتشريعات الاجتماعية والمضادة لتركيز رأس المال، ضرائب متزايدة على أرباح المؤسسات، سياسات مالية مستقرة). وفازت أحزاب العمال بالانتخابات فى معظم دول أوروبا الغربية.

* انتهت الفترة الإمپريالية باستقلال البلاد المستعمرة، وأصبحت «العسكرة» ظاهرة فى العالم الاشتراكى ودول العالم الثالث ولكن ليس فى الغرب. تتمتع القوى الغربية بأعلى مستوى للتجارة البينية، ولم ترَ دول أوروبا الغربية الرأسمالية صراعًا عسكريًا داخليًا واحدًا لمدة تزيد على نصف قرن.

* * *

• العقيدة السياسية

تؤدى الإستراتيجية والتكتيكات السياسية الشيوعية إلى عالم متوتر. تصبح الشيوعية

عالمية من خلال «ثورة عالمية» تؤسس ديكتاتورية البروليتاريا (إنجلز ١٨٤٧). «المهمة التاريخية العالمية» للطبقات العاملة التى تسمى الدولية البروليتارية، هى توحيد عمال الصناعة والفلاحين، والطبقة الوسطى الدنيا (البرجوازية الصغيرة) والمثقفين للعمل الثورى المشترك.

توقع الماركسيون أن تبدأ تلك الثورة فى الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا فى الوقت نفسه؛ حين يكتسب العمال «وعيًا ثوريًّا» كافيًا بسبب أحوالهم فى المجتمع. أما البلاد الريفية مثل روسيا والصين، فهى آخر البلاد التى قد تطولها الثورة.

توقع ماركس وإنجلز أن تقوم الطبقة العاملة بالعمل الثورى، أما لينين فقد بنى أمله على الصفوة من حزب الثوار المحترفين، ذلك الحزب الذى اعتبر ـ بعد ذلك ـ «دائمًا على صواب»، وبالتالى فله أن يحارب دائمًا من يخالفه من المنحرفين والمثقفين.

طالبت الشيوعية الدولية (عام ١٩٢٠) الأحزاب الشيوعية أن تساند حركات التحرر القومية فى العالم، ولكن بدون إغفال حقيقة أن «الاشتراكية أهم من حرية تقرير المصير» (لينين ١٩١٨). وعلى سبيل المثال، كان على الشيوعية أن تحارب الديمقراطية الليبرالية، والقوى الدينية، خصوصًا «الإسلامية»، بينما تؤيد «الوحدة العربية».

كان على ديكتاتورية البروليتاريا ـ وهى القوة السياسية العليا، التى لا يحدها قانون ولا تشريع ـ أن تطبق الاشتراكية فى ١٠ ـ ١٥ سنة بتأميم الصناعات والزراعات، وإعادة تجميع وتعليم المجتمع. فى تلك المرحلة، يحتكر الحزب الشيوعى، وهو الحزب الوحيد المسموح به، كل القوى ويحتفظ ببيروقراطية الدولة. الأمر الذى يجدر الاحتفال به كـ «أعلى أشكال الديمقراطية»!.

بعد تحقيق الاشتراكية، يمكن للعالم التحرك نحو المرحلة النهائية. طبقًا لبرنامج بوكانين الاشتراكى الثورى (١٨٦٥/ ١٨٦٦) ستذوب كل المنظمات الدينية والسياسية والاقتصادية والاشتراكية فى آخر مراحل الشيوعية.

لن يكون هناك: دين، دولة، محاكم، بنوك، جيش، شرطة.. كل ذلك سيختفى. سيكون هناك مجتمع لامركزى حرٌّ بدون طبقات ولا تناقضات، مجتمع، يجد فيه كل فرد ما يحتاج.

بعد ذلك، ادَّعى المنظرون المتأخرون: أنه تحت النظام الشيوعى ستختفى حتى الفروقات بين المدن والريف، بين عامة المواطنين، وسوف يدير كل المواطنين كل شىء! تذكر أن القائلين بذلك يتحدثون دائمًا عن «أفيون الشعوب»!.

فى مسألة ماذا يجمع مثل هذا المجتمع أخلاقيًا، أدلى باكونين بدلوه فقال:

«واجبنا نحن ـ أعداء الدين ـ أن نمارس الحب»! ثم زعم أن الإنسان لا يحب إلا من يحتاج إليه؛ لذلك يحب المتدينون الله، ولكنهم لا يستطيعون أن يحبوا جيرانهم، أما الملحدون فلأنهم يحتاجون لبعضهم البعض فى المجتمع، فهم يحبون بعضهم البعض!.

كان المخطط للاتحاد السوفييتى أن يصل تمامًا إلى المرحلة النهائية للشيوعية عام ١٩٨٠. قبل انهياره بعشرة أعوام!.

بوضوح شديد، كان التناقض فى المجال السياسى بين النظرية الشيوعية والواقع كارثيًا:

* الطبقة العاملة تتناقص عدديًا فى العالم. تمتلك الطبقة الآن أعدادًا كبيرة من العمال الآن وسائل إنتاج (أسهم فى المؤسسات والشركات والمصانع، وكثير منها يمتلك بيوته).

* التظاهرات الاجتماعية فى الغرب قادها الطلبة، كما حدث عام (١٩٦٨) وليس العمال، وليس للطلبة مكان فى المسار الشيوعى.

* على العكس من النظرية، قامت الثورات الشيوعية فى بلاد مثل روسيا والصين وليس فى العالم الغربى الصناعى.

* لم يحدث التحول فى الدول التى أصبحت شيوعية من تحرك القاعدة الشعبية، ولكن بواسطة القوة العسكرية من أعلى.

* لم تؤدِ الأنظمة الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى والصين إلى اختفاء الصراعات (الداخلية) السياسية والاجتماعية، والعرقية، ولم تؤدِ إلى ارتفاع الإنتاجية عما يسمى «العالم الرأسمالى».

* تحولت ديكتاتورية البروليتاريا إلى ديكتاتورية بيروقراطية الحزب، وتولدت طبقة ذات «اسم» جديد.

• الخلاصة

(أ) كانت الشيوعية أول محاولة فى العصور الحديثة لتغيير وتنظيم، بشكل كامل، ليس فقط الدولة والاقتصاد والمجتمع، بل حياة كل أفراد البشرية.

لم تكن محاولة لتطهير العالم من كل أعداء الشيوعية، ولكن لخلق «الإنسان الاشتراكى الجديد»، المخلص للعدل الاجتماعى والمساواة. ولتحقيق ذلك، سولت الشيوعية لنفسها ارتكاب أبشع الجرائم ضد الإنسانية، فقد قامت الأنظمة الشيوعية تحت حكام مستبدين لا تعرف الرحمة طريقًا لقلوبهم مثل لينين، ستالين، ماو، پول پوت، بقتل عشرات الملايين من النفوس البشرية، فيما يمثل عملية تطهير طبقى دموى.

كذلك أخفقت الشيوعية فى المجال الذى اعتبرته مزيتها الكبرى: الاقتصاد.

(ب) مثلت الشيوعية أكبر تهديد لحقوق الإنسان ورفاهيته الاجتماعية.

كان انهيار الشيوعية حتمًا، ولكنك لا تفتأ تجد بين بعض مفكرى وفنانى الغرب والعالم الثالث من تفتنهم الشيوعية، ربما أرادوا أن يحلموا باشتراكية ذات وجه إنسانى.

أدى الافتتان بالشيوعية فى ألمانيا فى السبعينيات، إلى إقامة «الكوميونات» التى مثلت نماذج تجارب موسكو عام ١٩١٨. لقد فكروا جديًا فى تدمير العائلة، وتربية الأطفال بطريقة جماعية. تحول المشهد اليسارى فيما بعد ١٩٦٨ إلى العنف. ظهرت منظمات إرهابية مثل «الجيش الأحمر ـ RAF» فى ألمانيا، «الألوية الحمراء ـ Red Brigades» فى إيطاليا، «العمل المباشر» فى فرنسا، وبررت إرهابها بأنه عنف مضاد لعنف الدولة المنهجى، ورفعوا الشعار التبريرى «دمر ما يدمرك».

وبهذا أثبتوا أن اليوتوبيا السياسية ـ قيد الممارسة ـ تهدد الفرد وحريته.

فقط، قليلون ـ مثل يوشيكا فيشر ـ تبين لهم بسرعة أن وسائل الفكر التكنوقراطى للشيوعية، لا تقل تدميرية لأهدافها الإنسانية عن الفكر النفعى فى الرأسمالية.

(جـ) اختفت الشيوعية من أوروپا وأفريقيا كاختفاء الشبح، فورًا عقب سقوط حائط برلين فى ١٩٩٠. لم تنهر قوة عظمى فى التاريخ بسرعة وبصمت مثل انهيار الاتحاد السوڤييتى، ومعه انهارت كل البنية الفوقية بالكامل للأيديولوچية الشيوعية. أكثر الناس لا يريدون حتى تذكر الشيوعية، فهم إما خجلوا من ذلك، أو ملوا الكلام عن ذلك.

اختلف النقاد فى أسباب انهيار الاتحاد السوڤييتى، وفى رأيى أن نادية مصطفى (القاهرة) وضعت إصبعها على السبب الرئيسى: «انهيار الأخلاق».

(د) أدى انهيار الاتحاد السوفييتى إلى اختفاء الماركسية من مجال البحث العلمى. إلا أن «الكتاب الأسود للشيوعية» الذى نشره ستيفن كورتواز عام ١٩٩٨، ماثل بين الشيوعية والفاشية فى عدة مجالات، فكلٌّ منهما تكلم عن «الرجل الجديد»، وطالب بالخضوع الكامل للدولة. كلٌّ منهما استخدم القوة الفجة فى فرض نظامه، وكلٌّ منهما رفع شعار «يجب إعدام كل من يقاوم». ليس فقط لينين، بل ماركس من قبله، اعتبر إرهاب روبسپير النظامى فى الثورة الفرنسية مثلًا يحتذى به.

حرب الدولة على مواطنيها، هى أقصى أشكال الصراع فى الشيوعية والفاشية.

فى فقرة واحدة: لم تكن الشيوعية فكرة طيبة ساء تنفيذها، بل هى فكرة سيئة منذ البداية، ولا يمكن تنفيذها.

* * *

الجزء الثاني

زيف الحداثة

• المادية العلمية

■ المصادر العامة

من المثير للاستغراب، أن كلًّا من مشروع الشيوعية وما يسمى مشروع الحداثة يعانى من العرض نفسه: المادية ـ الإلحاد. وفى الحقيقة، يعد كلٌّ من الفيلسوف الإغريقى ديموقريطس وفيلسوف القرن التاسع عشر الألمانى لودڤيج ڤيورباخ أبًا لأحد المعسكرين.

فى عام ١٨٠٥، قال الفيلسوف الفرنسى لاپلاس (مات ١٨٢٧) لناپوليون: أصبح الله افتراضًا سطحيًّا خرافيًّا من وجهة نظر العلم؛ حيث يمكن تفسير الكون بدون الحاجة إليه.

لم ينشأ الإلحاد، والنظرة المادية للعالم المرتبطة به من فراغ، بل كان ذلك إحدى النتائج الجانبية للفوران الفكرى فى القرن الثامن عشر.

ولقد كان الإيمان بمذهب الربوبية(*) الخطوة التى جاءت بالإلحاد، واعتنق مذهب الربوبية الملك البروسى فردريك الثانى، والأديب جوتهولد ليسنج (مات ١٧٨١)، والشاعر الكبير جوته (مات ١٨٣٢). كانت تلك العقول العظيمة واعية بعيوب الكنيسة وعقيدتها، ولكنها كانت مؤمنة بوجود سبب أول لكل ما فى الوجود. وعند بعض الربوبيين، السبب الأول مثل صانع الساعة، الذى أنهى عمله بأن صنعها وملأها وتركها تدور.

لم يلعب أحد دورًا فى القرن الثامن عشر مثل الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانت (مات ١٨٠٤)، وربما كان أهم فيلسوف منذ أرسطو. أثبت كانت فى كتابه «نقد العقل الخالص» (١٧٨١) مرة وللأبد أن قدرات الإنسان الحسية محدودة، فلا يمكن لمجهوداتنا الحسية أن تزودنا بمعرفة يمكن الوثوق بها لحقيقة غير حسية، مثل معرفة الله، ولا حتى الإحاطة بالحقيقة الموضوعية للزمان والمكان.

(*) فكرة انتشرت فى أوروبا ومن بعدها الولايات المتحدة، جوهرها الإيمان برب للكون دون الإيمان بالكتب المنزلة.

لم يزعم كانت أنه أثبت عدم وجود الإله، ولا أنه حتى يعتقد بإمكان إثبات ذلك. بل بالعكس، ففى كتابه «نقد العقل العملى» (١٧٨٨) أشار إلى أن البشر وهبوا طبيعة تجعلهم لا يستقيمون (أخلاقيًا) إلا بافتراض وجود إله، بكلمات أخرى، افترض كانت مفهوم الإله الذى لا يمكن الاستغناء عنه، حتى يمكنه بناء نظام أخلاقى.

طبقًا لكانت لا يمكن للإنسان أن يتوصل لمعرفة الحقيقة كما هى، ولكنه (جُبل)(*) ليفكر من خلال صور الحساسية (أى صورتى المكان والزمان) والمقولات.

واستطاع كانت بذلك ـ فقط ـ الزعم بأنه يمكننا التصرف بشكل معيارى.

بهذا، إذا كان منهج ومنطق كانت «لا أدريًا»، فهو قد انحاز ـ ولو عاطفيًا ـ لوجود إله، واعتبر ذلك افتراضًا ضروريًا لحياة الإنسان.

بكل تأكيد، لم يمهد كانت، ولم يرد أن يمهد الطريق للإلحاد.. ولكن للأسف استنتج بعض الناس من فلسفته أنه «ربما لا يكون هناك إله»!.

ربما يكون أستاذ الطب الفرنسى فى «أكاديمية العلوم البروسية ـ برلين» جوليان أو فروى دى لاميترى (مات ١٧٥١) أول ملحد معاصر ينفى حتى وجود روح فى الإنسان، ويعتبر «الإنسان ماكينة» يمكن تفسيرها بشكل آلى. ومن الملحدين البارزين فى ذلك العصر، لودڤيج ڤيورباخ، الذى رفض تمامًا الدين، وتشارلز داروين (مات ١٨٨٢) صاحب نظرية النشوء والارتقاء، كارل ماركس (مات ١٨٨٣)، وفردريك إنجلز (مات ١٨٩٥)، وعالم الحيوان الألمانى إرنست هيكل (مات ١٩١٩)، سيجموند فرويد (مات ١٩٣٩) مؤسس التحليل النفسى، وهو فرع إلحادى من علم النفس. هؤلاء هم قادة الفكر المادى.

اتخذ الإلحاد مستوى جديدًا مع فردريك نيتشه (مات ١٩٠٠) عندما أعلن «وفاة الإله»، وسواء اعتقد بثنائية المادة ـ الروح أو لم يعتقد، فقد أدى زعمه بأن «الإله قد مات» إلى نظرية جديدة فى اللاهوت المسيحى تبناها بعض الفلاسفة وعلماء اللاهوت، ومنهم مارتن هيدجر، مفادها أن الإله قد أُخرج من التاريخ، ولم يعد له تأثير على العالم، وتتحدث تلك النظرية عن الإنسان أكثر مما تتحدث عن الإله.

(*) اقرأ فى سورة الأعراف الآية ١٧٢.

■ **عواقب مختلفة**

إذا كنا قد رأينا العواقب المدمرة للإلحاد المادى فى العالم الشيوعى/ الاشتراكى، فالسؤال هنا: لماذا لم يعانِ الغرب من العواقب نفسها؟

الإجابة بسيطة: اختلف الإلحاد فى الشرق عن الإلحاد فى الغرب، لا يعنى هذا أن المادية فى الغرب ليست لها عواقب مدمرة، بل هى فقط ذات طبيعة مختلفة.

أمسك زمام الإلحاد فى الغرب تقليد ليبرالى - ديمقراطى إنسانى، يتمركز حول فكرة الإنسان الحر المسئول. غذى ذلك التقليد ثقافة «حكم القانون» والتى ساعدت - بقدر عظيم - على حماية المواطنين من تسلط الأنظمة الإلحادية.

أما عاقبة المادية عند الغرب، فهى الوقوع فى مذهب الهدونية «عبادة اللذة».

كذلك فى الغرب، ما زال الكثيرون يخجلون من أن يعترفوا بأنهم ملحدون، وما زال الدين يلعب دورًا مؤثرًا فى الحياة الأخلاقية والسياسية فى أوروپا، وخاصة فى الولايات المتحدة. وعلى الأقل، فالإلحاد لا يُدفع دفعًا فى العقول، كما حدث فى الاتحاد السوفيتى.

وليس الإلحاد تيارًا رئيسيًا داخل المؤسسة العلمية فى الغرب، وفى الواقع فإن العلم فى الغرب يجعل الناس يتذبذبون بين الإلحاد واللاأدرية والإيمان بدين ما.

وختامًا، فإنه ليس من المبالغ فيه أن نقول:

تخسر المادية الآن أرضًا لصالح الدين.

■ **العلوم الاجتماعية**

نلقى نظرة خاطفة على بعض الكتب التى خلقت الاتجاهات السائدة فى القرن العشرين:

١ - بعض هذه الكتب ذات منهج إلحادى بكل تأكيد، وأمثلة ذلك مؤلفات سيجموند فرويد، وأوزوالد شپنجلر، وماكس ڤيبر، وكارل شميدت، وأرنولد جيهلان، وچان پول سارتر، وكلود ليڤى شتراوس. وقد مثَّل كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد المنشور فى ١٩٠٠، علامة فى الطريق لتطوير علم نفسى تحليلى إلحادى، ينكر وجود الروح.

عندما نشر أوزوالد شپنجلر (مات ١٩٣٦) عمله «انحطاط الغرب»، فقد جذب القرّاء فى

الفترة بين الحربين العالميتين، وكانت رسالته مادية تاريخية ذات صبغة تشاؤمية قطعية مفادها أنه: ليس للإنسان هدف أو رسالة، فما هو إلا صنف من الحيوان (ليس من نافلة القول أن أوزوالد بمفهومه عن علم الإنسان الثقافى أيضًا، أصبح الأب لنسبية ما بعد الحداثة).

وقد وضع ماكس ڤيبر (مات ١٩٢٠) الأساس النظرى لعلم اجتماع لا يرى حاجة لإله فى كتابيه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥)، و«الاقتصاد والمجتمع» (١٩٢١ ـ ١٩٢٢).

أكد كارل شميدت (مات ١٩٨٥) الفكر المعادى للديمقراطية وللأخلاق، والذى اعتبر الحرب الأب الشرعى لكل شىء. وأصبح بكتابه «مفهوم السياسة» (عام ١٩٢٧)، الأب الروحى فى تقرير شرعية النازية. بدون التقيد حتى بسلطة «القانون الطبيعى»، أصبحت سيادة الدولة وكذلك الحاكم مرعبة بالفعل.

وعلق أرنولد جيهلان (مات ١٩٧٦) كل التساؤلات عن إمكانية ثنائية الجسد/ الروح.

ويصف چان پول سارتر (مات ١٩٨٠)، وأهم أعماله «الوجود والعدم»، الإنسان بأنه كائن مستقل ممزق بين حرية عديمة الجدوى، وجبرية مرعبة، واحتفاءً بسخافة الحالة الإنسانية، زعم سارتر بأن ليس للإنسان حياة داخلية، فقط ردود فعل للتحديات الخارجية (كل شىء من الخارج). سارتر فى جملة واحدة، أراد أن يحول الإلحاد إلى شكل فنى.

وأسس كلود ليڤى شتراوس «البنيوية الثقافية»، واعتقد فى «اللاوعى البنائى» الذى يحدد التصرفات الاجتماعية، وبيَّن ذلك فى كتابه «البنية الأساسية للعلاقات العائلية» (١٩١٩)، ولكن فى بحثه عن «المعايير الاجتماعية الأولية» رفض أن يرى فى الإنسان أى أثر للمقدس (الإله).

٢ ـ ومع هذا، كانت هناك «معالم على الطريق» فى القرن العشرين لأعمال فلسفة لا أدرية، اعترفت باحتمال وجود إله، أو حتى قامت بمحاولات صوفية غامضة سعيًا وراء الحقيقة الكاملة.

وقد أقلق لودڤيج ڤيتجنشتين (مات ١٩٥١) العالم الفلسفى ببحثه «رسالة فلسفة منطقية» الذى كتبه بالألمانية، حيث عرَّف فيها حدود الإدراك الإنسانى بحدود اللغة، وقال إنه لا يمكننا أن نفكر فيما لا يمكننا صياغته بشكل صحيح. ولكنه لم ينكر أن الحقيقة التى لا يمكن التعبير عنها (وبالتالى فلا يمكننا التفكير فيها) لها وجود فعلى، وسماه «الغموض» الظاهر، وطبقًا لأفكاره، فإن كيفية عمل العالم ليست غامضة، ولكن الغموض الحقيقى يكمن فى أنه موجود.

ذلك بالقطع ليس موقفًا لشخص ملحد، لكنه موقف لاأدرى متفائل.

يمكن أن نقول الجملة السابقة نفسها على مارتن هيدجر (مات ١٩٧٦) الذى نجد هاجسه عن «لغز الوجود» فى عمله الرئيسى (الوجود والزمان، ١٩٢٧) ونصيحتى لمن ليس ألمانيًّا ألا يقرأ هيدجر بالألمانية، فأسلوبه الذاتى الرفيع، كثيرًا ما يُحيِّر، فالترجمة الإنجليزية أو الفرنسية أسهل فى الفهم.

رأى هيدجر أن «الوجود» يتشكل «فى» وليس «بواسطة» الإنسان. وبرغم أن تفكيره كان بصفة رئيسية يتمحور حول الوجود، فإنه لم يصل قط لصيغة عن هدف أو معنى الوجود.

وعندما بلغ هيدجر خمسين عامًا، التفت نحو الأسطورة عبر لغة مغرقة فى الشعرية والرومانسية. وفى الحقيقة، ففى الوقت الذى أصبح فيه عدوًّا للميتافيزيقية التحليلية، أصبح هو نفسه منفتحًا على التسامى للمقدس.

وقد تحول كلٌّ من ماكس هوركايمر (مات ١٩٧٣)، ثيودور دبليو أدورنو (مات ١٩٦٩) من الماركسية إلى النقد المرير للحداثة، فى عملهما المشترك العالى المستوى «جدلية التنوير» (١٩٤٧) وكشفا عن الدور المستمر لـ «العناصر الأسطورية» المهجورة، وكيف انجدل ـ بإحكام ـ العقلى والأسطورى.

لقد تبيَّنا أنه إذا مات الإله، انهزمت العقلانية، وأن المنطق التسلطى الاضطهادى فى شكل أيديولوچية قد حل محل الدين. وقد فسر ذلك لهما كيف أصبحت النازية والستالينية معًا النقيضين الصارمين للعقلانية وجميع نتائجها.

يسهل أن نرى هوركايمر وأدورنو يساعدان على التبشير بما بعد الحداثة، وتسامحها مع ما هو تقليدى، وقد لا يبدو عقلانيًّا، بما فى ذلك الدين.

ربما يكون اللغوى الروسى الرائد ميخائيل باختين أحسن من لخص المرحلة الانتقالية من الحداثة لما بعد الحداثة عندما كتب «معضلات شعريات ديستوفسكى» (١٩٢٩): «لم يحدث شىء بشكل نهائى فى العالم. حتى الآن لم تنطق كلمة العالم الأخيرة، ولا الكلمة الأخيرة عن العالم. العالم حر ومفتوح. كل شىء ما يزال فى المستقبل، وسيظل دائمًا فى المستقبل».

■ العلوم الطبيعية

فى مجال العلوم الطبيعية، وجدنا فى القرن العشرين نفس الخليط من اللاأدرية والإلحاد،

والتذبذب بينهما، كما وجدنا ذلك بين علماء الاجتماع، ولكن وجدنا أيضًا اتجاهًا مذهلًا نحو الدين، كما ظهر بين العمالقة من علماء الفيزياء الحديثة مثل:

داڤيد بوم، ونيلزبوهر (ماتا فى ١٩٦٢)، ماكس بورن (مات ١٩٧٠)، سير آرثر إدنجتون (مات ١٩٤١)، ألبرت أينشتاين (مات ١٩٥٥)، فيرنر هايزنبرج (مات ١٩٧٦)، أرنست يى چوردان (مات ١٩٨٠)، ڤولفجانج پاولى (مات ١٩٥٨)، ماكس پلانك (مات ١٩٤٧)، إيروين شرودينجر (مات ١٩٦١) كارل ف. ڤون ڤايتسكر [ترتيبهم أبجدى بالإنجليزية].

يمكن فهم الأوضاع فى القرن العشرين بفهم أوضاع القرن السابق عليه، عندما توقع العلماء أن تجيب العلوم الطبيعية عن كل الأسئلة الكبرى عن العالم واستمراره، وكيف يعمل، الحياة، الوعى الإنسانى، الجاذبية، مكونات الذرة، بداية العالم ومستقبله.

عندما لم يحدث أىٌّ من ذلك، بدأت الشكوك والتساؤلات عن الحداثة نفسها.

١ ـ الفيزياء الحديثة

أ ـ العالم فى وصفة؟

اعترت العالم خيبة أمل فى مجال من أنجح مجالات العلم الحديث: الفيزياء الحديثة.

جاءت ثورة الفيزياء الحديثة على يد ماكس پلانك وألبرت أينشتاين وغيرهما لتحل الفيزياء الكمية محل فيزياء نيوتن التقليدية فى مطلع القرن العشرين، وبرق أمل تلخيص الحقيقة الكلية فى معادلة رياضية واحدة. كانت تلك فكرة طموحة، مهدت لها معادلة أينشتاين:

$E = m\,c^2$، أو الطاقة E = الكتلة m × مربع السرعة c^2

لم تستبعد تلك الفكرة بالضرورة تفسيرًا دينيًا للحقيقة، ولكنها بكل تأكيد لم تشجعه أيضًا.

ب ـ أسئلة أخرى مفتوحة

بعد قرن ازدهرت فيه العلوم الطبيعية، ما زلنا فى انتظار حل كل الألغاز العلمية الجوهرية، سواء كان ذلك فى الفيزياء الجزيئية، علم الكون، الكيمياء الحيوية، النانو(*) تكنولوچى، نظرية

(*) النانو تكنولوچى تتعامل مع المادة فى صورة تجمعات ذرية لها أبعاد فى حدود عدة نانومترات، حيث النانومتر هو جزء من بليون (ألف مليون) من المتر. وبسبب هذه الأبعاد المتناهية الصغر، تتغير خواص المادة تغيرًا كاملًا، وتنشأ ظواهر غير معتادة للإلكترونات، يمكن الاستفادة منها فى التطبيقات الإلكترونية وفى الحاسبات المستقبلية، والطب، وعلم المواد، والطاقة النظيفة، ومكافحة التلوث.

الشواش (الفوضى) أبحاث المخ والأعصاب و... وفى الواقع، أصبح العلماء على وعى أكثر بالمحدودية الكامنة فى طبيعة الأبحاث العلمية.

٢ ـ الرياضة والنظرية العلمية

أ ـ حدود التفاضل والتكامل

لفت عالم المنطق النمساوى كورت جوديل الأنظار فيما يخص ما وراء الرياضيات إلى الحقيقة المثيرة للإحباط المتعلقة بقانون «النقصان» (عام ١٩٣١)، ومفاده: أن أى وصف رياضى للعالم سوف يظل دائمًا «ناقصًا»؛ لأنه سوف ينطلق ـ بالضرورة من افتراض بديهى واحد على الأقل.

ب ـ حدود التحقق

تزايد التشاؤم من إمكانية التحويل الموثوق به «للحقيقة الكاملة» إلى معادلات رياضية، عندما وصلت فيزياء الجسيمات إلى أبعاد متناهية فى الصغر لا يمكن التحقق من حقائقها أو إثبات زيفها تجريبيًّا. ولم تعد لفيزياء الجسيمات المتناهية الصغر وسيلة علمية يمكن بها استبعاد أن الله يدًا فى الأمر، وبذلك أصبحت فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر علمًا تخمينيًّا أكثر منه تجريبيًّا.

جـ ـ افتراضات بدون دليل

تزايدت الشكوك طبقًا لنظرية العلم التى طوَّرها عام ١٩٣٥ الفيلسوف النمساوى كارل پوپر مثلما فعل داڤيد هيوم فى القرن الثامن عشر بخصوص السببية، قال پوپر: لا يمكن لأحد التأكد من صحة نظرية لمجرد أنها تبدو أنها تعمل، يمكننا فقط التأكد من أن هناك نظرية خاطئة، عندما نستطيع إثبات زيفها. ولذلك فما هى إلا خرافة علمية أن نعتقد إمكان تأمين معرفة «أكيدة» عن طريق معلومات نحصل عليها بالحواس.

«الاحتمالية» هى أعلى درجات «اليقين» التى يمكن الحصول عليها.

وعلى ذلك، طالما لا يجيب العلم عن الأسئلة «الكبرى» بخصوص أصل الكون والهدف منه، يظل الدين بمنأى عن إمكانية الاستغناء عنه.

د ـ النسبية المطلقة؟

زاد المفكر النمساوى پول فايرباند (مات ١٩٩٤) ـ صاحب الشعار ما بعد الحداثى «أى

شىء يجوز» ـ من الاتجاه نحو النسبية المطلقة فى كتب مثل «ضد قيود المنهجية» (١٩٧٥)، «المنطق يضل» (١٩٨٧). وطبقًا لأقواله: العلم أحد الطرق للاقتراب من الحقيقة، بجانب ـ وليس مهيمنًا على ـ الدين، الفلسفة، الفن.

وعلى ذلك، لم يخجل فايرباند من الكلام عن الله، ولم لا؟ أليس أى شىء يجوز؟

كان لتوماس كون من «MIT» فى بوسطن التأثير نفسه بمفهومه الشائع عن «النماذج الثقافية». وأصبح كتابه «هيكل الثورات العلمية»، الذى نُشر فى أوائل السبعينيات، كعبة فكرية.

النموذج الثقافى هو افتراضات أولية فى مفاهيم ثقافة ما، تحكم كل أنشطة المجتمع، حتى العلمية منها. لذلك، فإن ما يعتبر صحيحًا فى نموذج ما، قد لا يعنى شيئًا داخل نموذج آخر. النماذج الثقافية مثل اللغات المختلفة، غير قابلة للقياس، ومتعددة، لكنها نماذج متنوعة من الحقيقة متساوية الصحة.

بكلمات أخرى، لم يمكن معرفة الحقيقة المطلقة عند جوديل، پوپر، فايرباند، كون، مما شجَّع على ما يمكن تسميته «أسطورية النسبية»، وبعيدًا عن الاعتقاد اليقينى الذى ساد فى القرن التاسع عشر بأن كل شىء ستتم معرفة حقيقته، شك هؤلاء المفكرون فى أنه يمكن معرفة حقيقة أى شىء إلى درجة كافية من اليقين.

٢ ـ فيزياء الجسيمات متناهية الصغر

أ ـ الحقيقة تحت الذرية

ـ زيارة ثانية

من قديم الأزل، توصل مفكرون مثل ديموقريطس إلى أن المادة يمكن تفتيتها إلى حدود دنيا ليس بعدها تقسيم أو تفتيت، وأطلق على أصغر مكوناتها الذرة. شكَّلت الذرة مفهومًا تجريديًا للحقيقة الأساسية عند المفكرين، ابتداءً بأرسطو، ومرورًا بابن رشد إلى نيوتن. وفى القرن التاسع عشر، اعتبرت الذرة ما لا يمكن الحصول على أصغر منه فى العناصر الكيميائية.

ـ النظرية الكمية

جاء أربعة علماء عباقرة ـ ألمان ونمساويون ـ من الحاصلين على جائزة نوبل:

ماكس بلانك (مات ١٩٤٧)، ألبرت أينشتاين (مات ١٩٥٥)، إيروين شرودينجر (مات ١٩٦١)، فيرنر هايزنبرج (مات ١٩٦٧) بنظام جديد للفيزياء الكمية، مبنى على مفهوم جديد للطاقة، ولحقيقة الذرة، ولطبيعة الزمن والفراغ. أصبحنا نعلم أن فيزياء نيوتن تسرى فقط على الأجسام الكبيرة التى تحتوى على عدد هائل من الذرات، وفى غير ذلك تصبح نظرية الكم هى الصالحة للتطبيق. كما تسرى فيزياء نيوتن على السرعات الأقل بكثير من سرعة الضوء (وبغير ذلك يصبح القانون الثانى للنسبية هو الصالح للتطبيق). أصبحت هذه القصة معروفة إلى حد كبير. كان بلانك هو أول من اكتشف أن الضوء والمادة يمكنهما أن يتبادلا الطاقة بمقادير ثابتة متقطعة (تسمى الكم أو «كوانتم»).

- نسبية الزمان والمكان

قاد ذلك أينشتاين ليصف الضوء والإشعاع كظاهرة كمية تسرى بسرعة لا يمكن تجاوزها وتسمى سرعة الضوء، وهى أفضل «ثابت» معروف فى الطبيعة. غيَّر أينشتاين مفهوم الزمان والمكان بنظرية النسبية (١٩٠٥، ١٩١٤، ١٩١٦)، وكان العالم كانت قد أنكر من قبل هذه المفاهيم؛ حيث اعتبر الزمان والمكان من وسائل الفطرة الإنسانية فى الإدراك الحسى. والآن أثبت أينشتاين أن الجغرافيا هى شىء أنشأه التركيب العقلى الإنسانى، وأن الزمان بُعد رابع.

- الجُسيمات تحت الذرية

سرعان ما اكتشف إرنست رثرفورد (مات ١٩٣٧)، ونايلز بوهر (مات ١٩٦٢) أن كل ذرة عبارة عن نظام متعادل كهربيًّا وقائم بذاته، مما يعنى ضمنًا أن العالم ما هو إلا ذرات غير مرئية يتخللها فراغ.

هايزنبرج وپول ديراك اللذان اكتشفا فى عام ١٩٢٨ وجود ضديد الجسيم (الپوزيترون مثلًا هو ضديد الإلكترون)، وبالتالى اكتشفا المادة المضادة، مما قاد إلى تصور الذرة على أنها جسيمات (أصغر) وهى پروتونات ونيوترونات محاطة بإلكترونات.

- عدم اليقين (اللاحتمية)

تحقق أيضًا إمكانية تحويل المادة إلى طاقة، والطاقة إلى مادة، بل وإنه على المستوى تحت الذرى لا يمكن التمييز بين حالتى المادة والطاقة: حيث يمكن أن تظهر الظاهرة كجسيمات أو كموجات طاقة (مبدأ عدم اليقين، ١٩٢٧) اعتمادًا على فنية الملاحظة. هذا المبدأ وصفه ريتشارد پى فينمان كالتالى:

«إذا قلت إن الإلكترونات والبروتونات تتصرف مثل الجسيمات، لهيأت انطباعًا خاطئًا، كذلك لو قلت إنها تتصرف كموجات. إنها تتصرف بطريقتها غير القابلة للتقليد، والتى تسمى الميكانيكا الكمية.

خلاصة كلامه، أن لغة الإنسان غير ملائمة لوصف الظواهر التى تتخطى خبرات الحياة اليومية.

ـ حديقة حيوانات الجسيمات

استطاع علماء الجسيمات التجريب مع الذرات المفردة، بفضل «المذبذب الضوئى ـ Light Resonator»، واكتشفوا حديقة حيوانات كاملة من الجسيمات تحت الذرية.

يُعتقدُ الآن أن للبروتونات والنيوترونات مكونات بناء، تأتى دائمًا فى مجموعات ثلاثية، سماها موراى جيلمان بسخرية كافية «كوارك ـ Quark». ومنذ ذلك الوقت، بدا أن المادة يمكن تفكيكها إلى ستة كواركات، وستة ليبتونز أصغر من قدرتنا على التخيل.

أما جسيمات النيوترينو التى توقع وجودها ڤولفجانج پاولى عام ١٩٣٠، فقد تم اكتشافها أول مرة عام ١٩٩٩ فى مينز (ألمانيا)، وفى تروتسك (روسيا)، وهى جسيمات متعادلة لها كتلة قليلة (أو بلا كتلة تقريبًا).

كذلك، أمكن فى كلٍّ من روما وبكين عام ٢٠٠٠ تأكيد وجود «المادة السوداء ـ Black Matter» التى تشكل معظم كتلة الكون، على شكل «ويمپات ـ Wimps» (الجسيمات الثقيلة ذات التفاعل الضعيف ـ Weakly interactive massive particles)، تزيد كتلتها على كتلة البروتون خمسين ضعفًا. وقد أمكن رؤيتها بطريقة غير مباشرة عند تصادم المادة السوداء، مما يبعث برقًا ضعيفًا. كما يمكن للمرء الآن أن يأمل فى إمكان وجود موجات للجاذبية، يظن أن طولها الموجى ١٠٠كم.

ـ التداخل بالملاحظة

يتعجب المرء الآن، إلى أى مدى سيصل التقدم فى هذا المجال؟

مع الأخذ فى الاعتبار أن كل الملاحظات فى فيزياء الجسيمات متناهية الصغر تعتمد على طريقة الملاحظة المستخدمة، أى أن كل المعلومات الملاحظة، تأثرت بشكل لا يمكن تجنبه بتفاعل الجسيم الملاحظ مع الشخص القائم بالملاحظة.

كم كان باعثًا على إحباط العلماء أن يدركوا أن كل ما أرادوا - بكل أمانة - أن يلاحظوه بموضوعية، انطبعت عليه ذاتيتهم، وخلفيتهم الثقافية. يبدو أن العالم الموضوعى - حقًّا - هو أمر بعيد عن المنال، فما نستقبله هو - حتمًا - مشوب بذاتنا (هانز پيتر دور).

- السببية أم تأثيرية؟

بناء على ما سبق، ماذا بوسع المرء أن يفهم عن حقيقة ما تحت الذرة، التى لا تبدو أنها تتكون من شىء محدد بقدر ما هى تدفق ظواهر كونية، ليست بمادة وليست بـ: لا مادة؟ ماذا يفهم عن عالم ما تحت الذرة، الذى ليس فقط أصغر من الذرة، ولكن ذا تركيب مختلف، ليس محددًا ميكانيكيًّا ولكن محددًا كميًّا؟

أشير هنا إلى الاكتشاف المحبط لظاهرة الشواش (الفوضى)، والتى هى - رغم تحررها من السببية، وكونها خارج نطاق التنبؤ - محددة إلى حد ما.

حركة كل عنصر خارجة عن التنبؤ، ومع ذلك فإن سلوك عدد كبير من تلك العناصر - أى السلوك الجماعى لها - يمكن التنبؤ به.

هنا تحل ظاهرة التأثيرية محل فكرة السببية. هكذا بلا مواربة!. بمعنى، أننا جميعًا منذ الطفولة، قد تربينا على الأوهام ذات الجذور القوية على السببية، وعلى اليقين «بالأشياء»، وهى الأيديولوچية التى سماها باشيلارد «الشيئية» نسبة إلى «الشىء».

- نظرية الأوتار الفائقة

ربما كان لإدوارد ويتن - جامعة پرنستون - الفضل فى إحراز أكبر تقدم معاصر فى طريق معادلة واحدة للكون، باكتشافه أو باختراعه «نظرية الأوتار»، وهى آخر صيحة فى الخمس والعشرين سنة الماضية، وربما تكون نهاية التخمينات الفيزيائية. فرضها الرئيسى أن أصغر جسيمات المادة لا تأتى مثل نقط فى الفضاء، ولكن على الأصح على شكل حلقات (أو أوتار) متذبذبة متناهية فى الصغر.

التفسير الرياضى لفكرة طاقة الأوتار الفائقة يفترض أنها تدور فى حركة - دوامية فى فراغ هائل ذى عشرة أبعاد. ويفترض أنها تشرح - رياضيًّا - ترابط كل القوى الفيزيائية خاصة الجاذبية.

هذه الأوتار ليست مادة ولا طاقة، وتُعتبر فى نظرية ويتن هى صانعة المادة والطاقة والفضاء والزمن.

يعتقد إدوارد ويتن بصدق نظرية الأوتار نتيجة «سحرها، تماسكها وترابطها بدرجة لا تصدق، جمالها وأناقتها».

ومَثَّل بريان جرين رجع الصدى لذلك فى كتابه «العالم الأنيق...».

بكلمات أخرى، نظرية الأوتار من الناحية الرياضية أجمل من أن تكون خاطئة.

ويُعد ويتن من عباقرة الرياضيات المعدودين، فهو نظير لكل من أوكليد وپيير فرمات (مات ١٦٦٥)، ليونارد إيلر (مات ١٧٨٣)، كارل فريدريش جاوس (مات ١٨٥٥)، جوتلوب فريج (مات ١٩٢٥)، كورت جوديل، لذلك يحسن أن نأخذ كلامه على محمل الجد.

ولكن بوسع المرء أن يسأل نفسه مع چون هورجان: أليست نظرية الأوتار من قبيل محاولات اختزال الله؟

ماذا نحن فاعلون بشرح للعالم ـ الذى لا يفهمه أحد تقريبًا ـ يقتصر على حقيقة رياضية لا يمكن إثبات صحتها أو زيفها؟ ألسنا نتصرف كما لو كانت الأرقام موجودة فى الحقيقة؟ متناسين «بقدر ما تشير الأرقام إلى حقيقة، فإن قوانين الرياضيات غير مأمونة التأسيس» (أينشتاين).

عندما تكون النماذج الرياضية متماسكة أكثر من الحقيقة التى تمثلها، ألا نكون قد وصلنا إلى نقطة أصبح الاتصال فيها بالحقيقة واهيًا؟ (وصف باخيلارد الرياضيات الحديثة كمن يضغط على دواسة البنزين وذراع النقل على الوضع الحيادى).

نظرية الأوتار الفائقة قد تكون «تحليقًا رياضيًا فى الخيال» بشكل مقبول (روجر پينروز)، «متماسكة وأنيقة» (ستيڤن ڤاينبرج). ولكنها واحدة من حالات بناء محتملة للحقيقة.

ما سبق يشرح الملاحظة الساخرة لشيلدون جلاشو «يمكن تدريس نظرية الأوتار الفائقة فى الكليات الدينية»؛ حيث «إننا نرى بوضوح اقتراب الوقت الذى سيحل فيه الإيمان مرة أخرى محل العلم».

ب ـ الأفلاطونية الجديدة

ـ عودة الروحانية

إذا علمنا أن البحث عن أصغر وحدة للمادة، هو بحث عن وحدة الوجود، فلن تكون مفاجأة أن نكتشف اقتراب عمالقة الفيزياء الجديدة من المثالية الأفلاطونية أكثر من اقترابهم من مادية ماركس.

ألم يفترض أفلاطون من قبل أن العالم المادى ما هو إلا تجسيد غير كامل لأشكال صحيحة رياضيًا، أى نظام من الأفكار المتصلة؟

على الأقل، تعلّمنا الفيزياء الحديثة أن نبقى بمنأى عن أى ادعاء مفرط للحقيقة (أنتون زيلنجر).

أثارت الاكتشافات الحديثة فى فيزياء الجسيمات أسئلة أكثر مما قدمت من أجوبة، كثير من الأسئلة المحيرة جعلت ريتشارد فاينمان أحد عباقرة جائزة نوبل يعترف «لا أحد يفهم النظرية الكمية» ومع ذلك، فتلك الفيزياء الكمية ـ التى تقترح غياب السببية فى عالم ما تحت الذرة، وتدمر يقيننا بخصوص الزمان والمكان تحولت إلى أكثر عوامل القلق فى الثورة العلمية الحديثة، ومهدت بذلك الطريق لإعادة بروز الفلسفة فى معامل الطبيعة. كان ذلك حتميًا، بعد أن ظهر جليًا أن أساتذة الفيزياء الحديثة ظلوا غير قادرين ـ مثل سابقيهم ـ على خلق أو زيادة أو إفناء المادة. لا يقدر أحد فى الحقيقة على ذلك سوى الله.

فى خلال القرن التاسع عشر، تسامح العلماء بخصوص الدين، حتى يتسنى لهم ـ كما اعتقدوا ـ حل ألغاز الدنيا عقليًا.

ولكن پلانك الذى كان بالفعل مسيحى القلب ـ حافظ على رؤية عدم تضاد الدين مع العلم، بل وجدهما مكملين أحدهما للآخر، وقال: «يظهر الله للمتدينين فى بداية تفكيرهم، أما عند علماء الطبيعة فيظهر فى ختام تفكيرهم».

بينما قال ألبرت أينشتاين ذو القلب اليهودى: «العلم بدون الدين كسيح، والدين بدون العلم أعمى».

وافق أدنجتون على ذلك قائلًا بروح فكاهية عذبة: «لست مقتنعًا بأن رياضيًا يفهم العالم أكثر من شاعر أو صوفى، هو فقط قد يكون أفضل فى الحساب». أعلن ڤولڤجانڤ پولى الذى رأى نفسه على نهج الرياضى الصوفى الأول فيثاغورث، أنه يسعى خلف «تركيبة من العلم والتصوف» حتى يستطيع أن يدرك «حلم وحدة النفس والطبيعة». كما عبَّر عن ذلك داڤيد لوهم «الكلى فقط هو الحقيقى».

فى عام ١٩٢٠، مر هايزنبرج الحاصل على نوبل فى الفيزياء بتجربة دينية عميقة، أدت به إلى الاعتراف بإمكانية النبوة. اعتقد فى أواخر حياته أن الوجود والتفكير هما واحد وهما الشىء

نفسه، وأن الفيزياء الحديثة شكل جديد من الميتافيزيقا، تحاول الوصول إلى «الطبقة العليا من الحقيقة.. والتى لا يستطيع أحد التكلم عنها إلا على سبيل المجاز».

ومعه أصبحت النظرية الكمية لا يُعبر عنها، أى لا تقال، مثل التجربة الدينية، وعند هذه النقطة، عندما قام بتفسير المشاهد ما تحت الذرية، شك هايزنبرج «هل الحقيقة تتمثل أكثر فى الوضوح أم فى الغموض؟».

ـ وحدة الكون المثالية

أعاد الفيزيائيون الجدد السماح للروحانيات بالولوج فى العلوم الطبيعية، ولكن ما هى مبادئ الدين عند هؤلاء الرواد؟

برز اعتقادهم بأن العالم ليس مركبًا ثنائيًّا، من المادة والروح. وبمصطلحات فلسفية، أصبح الفيزيائيون الجدد مؤمنين بوحدة الكون، على الأقل فى عيون پلانك، أينشتاين، شرودينجر، هايزنبرج، ڤايتساكر، (مع ديراك كمنشق معروف عن المادية).

وبهذا حلت وحدة كون روحية محل وحدة كون مادية سادت فى القرن السابق لها.

كما كان دائمًا الحال عند الصوفية فى الشرق وفى الإسلام، أصبح العالم ـ ثانيًا ـ تنفيذًا لمشيئة روحية عالية، أو لكلمة، بمعنى أن العالم فعل فكرى وأن القوانين الطبيعية هى انعكاس له.

قال شرودينجر بإيجاز: «الله روح» دائم الوجود فى الحاضر خارج الزمان. عند أدينجتون «فكرة الروح الكونية للكلمة هى الخلاصة الواضحة للفيزياء النظرية الحديثة»، تمسك بـ «أن جوهر الحقيقة روحانى، ليس ماديًّا وليس ثنائيًّا من المادة والروح».

بناء على فهم العالم على أنه فكرة عظيمة وليس آلة ضخمة، استخلص هايزنبرج «حكمت الفيزياء الحديثة بكل تأكيد لصالح أفلاطون».

ـ وحدة كون جديدة

طبقًا لأينشتاين، كان الباحثون الجادون «فقط أولئك المتدينون بعمق، فى عالمنا المعاصر المادى». ولكن تلك الروحانية الجديدة ـ التى لا تبعث على الخجل ـ صارت «الدين العالمى» دون الارتباط بدين، أى دين. على الرغم من ذلك، فإن بعض مشاهير الفيزياء الحديثة مثل شرودينجر، وبوم، وكابرا، درسوا وأظهروا التعاطف مع البوذية، والتصوف، والكتب المقدسة للهندوس. وفى الواقع، يمكن أن يطلق على معظم رواد الفيزياء الحديثة «صوفية الواحد»

(ريتشارد ف. ڤايتساكر)، الذين يكنون عظيم الإعجاب للأسلوب الشرقى الدينى لاستيعاب الحقيقة ككل عضوى.

وبالمصطلحات الفلسفية، هذا الفهم يمكن النظر إليه على أنه وحدة للوجود تترك الباب مفتوحًا فى أن يصبح الله شخصًا أو لا يكون كذلك.

لقد ظنوا سابقًا أن الله هو «ميكانيكى» فى (القرن الثامن عشر)، وأنه «بيولوچى» فى (القرن التاسع عشر)، ويفهم الله الآن على أنه طاقة أو قوة!... سبحان الله!

- اللاأدرية المنهجية

يسود بشكل متناغم بين الجيل الثانى من الفيزيائيين المعاصرين إحساس بالإحباط وإحساس بالرهبة. قال بوم: «نحن حتى لم نلمس الذى لا يمكن قياسه». أما ستيڤن ڤاينبرج فقال: «كلما زاد فهمنا للعالم، بدا أنه بدون معنى». ويخشى چون هويلر أنه فى نهاية البحوث العلمية للإجابة النهائية، سيجد الإنسان أن لديه أسئلة أكثر مما بدأ به.

ألا يذكرنا هذا بخلاصة «منطق الطير» للصوفى الفارسى فريد الدين العطار (مات ١٢٢٠).

انطلاقًا من هذه المرجعية، يميل بعض الفيزيائيين المعاصرين إلى لاأدرية علمية متشائمة، بدلًا من تبنى المثالية الأفلاطونية. ويبدو ذلك كقاعدة منذ ساد علماء الأنجلو أمريكان بدلًا من العلماء الألمان. فقط داڤيد بوم الذى درس التصوف التبتى، والهندوسية، وهاجر من الولايات المتحدة، وچون هويلر، أظهرا ميلًا أكبر إلى المثالية الأوروبية الجديدة، وفيها أن الكون ليس فيزيائيًّا محضًا، ولكنه ظواهر متفاعلة؛ لأن الكون يحتاج إلى من يشاهده.

أشهر علماء الفيزياء المعاصرين من الأنجلوساكسون (طبقًا للترتيب الأبجدى) شيلدون جلاشو (هارڤارد)، روجر بينروز (كامبريدچ)، چون هويلر (پرينستون)، ستيڤن ڤاينبرج (تكساس)، إدوارد ويتن (پرينستون)، أكثرهم حاصلون على جائزة نوبل، وبمقارنتهم بأندادهم فى أوروبا الأكثر ميلًا للتدين، إن لم يكن التصوف، يبدو الأمريكيون لاأدريين، إن لم يتبنوا آراء الفلسفة الوضعية(*).

(*) مرت البشرية بثلاث مراحل فى تفكيرها، الأولى: اللاهوتية التى تفسر الكون تفسيرًا لاهوتيًّا محضًا. والثانية: الميتافيزيقية التى تفسر الكون بمفاهيم مجردة، مثل مفهوم الجوهر. والثالثة: العلمية التى تفسر الكون تفسيرًا وضعيًّا بالرجوع إلى الواقع الخارجى وفق قانون السببية. ومن وجهة نظر أرجست كونت، فهى الفلسفة التى تُعنى بالأشياء التى يمكن رؤيتها، أو إقامة البرهان عليها، مهملة الأفكار اللاهوتية التجريدية.

ومن حججهم الأخرى فى ذلك «المنطق الغائم».

ـ المنطق الغائم

كلما اقتربنا من «الحقيقة النهائية» فى كلٍّ من العلوم والتصوف، دخلنا فى «متناقضات». هل يمكن أن يكون ذلك لقصور المنطق الإنسانى؟ هل يمكن أن تكون «الحقيقة النهائية» غير منطقية وغير عقلانية؟

هل علينا أن ننطلق من مفهوم آخر، وهو أنه لا يوجد قانون يمنع التناقض؟ حتى لو كان كل المنطق والرياضيات الإنسانية قائمًا على عدم التناقض؟

أعلن جوتلوب فريج بما يملكه من «المنطق الكمى» بعد ٢٠٠٠ عام من سيطرة القياس المنطقى لأرسطو ـ قائلًا: لا يتعامل المنطق مع الحقيقة بهذا الشكل، ولكن يتعامل فقط مع القوانين؛ ليحكم باعتبار الجملة حقيقة أو زائفة، تتكون الجمل من كلمات، أى «إشارات من إشارات». لذلك رفض جملة لا يعنى تدمير فكرتها، ولكن يعنى ببساطة معارضتها بفكرة أخرى (وبهذا يدخل المنطق فى علم اللغويات، وفلسفة اللغويات قبل لودفيج فيتجنشتاين).

قام البرازيلى نيوتن دى كوستا بالباقى فى مقالته «بعد التماسك»: المنطق الغائم (١٩٦٣) وهو مبدأ تم قبوله تحت تصنيف رياضى. بل استطاع دى كوستا عام ٢٠٠٠ أن يعقد مؤتمرًا فى ساوباولو عن منطق ما بعد التماسك. حاول الإنسان سابقًا أن يتحكم فى بيئته بالسحر أو الأساطير أو التصوف، ويحاول الآن ذلك بالفكر. ولكن بمقتضى التعريف، ما هو فوق العقل لا يمكن عقلنته. ولذلك يمكن للمرء أن يتساءل: هل الفيزياء التخمينية ما بعد التجريبية والتى لا يفهمها إلا القلة، يجب التوقف عن عرضها كعلم؟

٤ ـ فيزياء الأجسام الضخمة (الفلك)

ننتقل الآن من فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر إلى فيزياء الأجسام الضخمة الحديثة: علم الفلك.

تمت اكتشافات مهمة منذ اكتشف أدوين هابل عام ١٩٢٩ أن الكون يتمدد(*)، وبهذا فتح الباب أمام كل الأسئلة المختفية وراء مفهوم الانفجار العظيم، والتقلص (الطوى) العظيم.

(*) ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات].

كما حدث تقدم فى قياس السرعة التى تتمدد بها المجموعات النجمية، كذلك حدث تقدم فى التحليل الكيميائى للعناصر فى الفضاء، واكتشاف الإشعاع الكونى الأساسى. وبالطبع، حدث تقدم كبير فى صناعة التلسكوبات، ومع هذا لا أحد يمكنه أن يحدد عمر الكون.

قد نستطيع ذلك عندما يتحقق مشروع الهبوط على المريخ عام ٢٠١٩.

. أدت معظم الأبحاث الحديثة إلى زيادة عدم اليقين. بل بدأ التعجب من احتمال أن تكون هناك سرعتان مختلفتان للضوء! هل هناك كون آخر مشابه؟ أو كونان؟

فى الواقع، ما زالت كل الأسئلة الفلسفية الرئيسية بدون إجابة.

* كيف بدأ الكون؟

* ماذا كان قبله؟

* كيف سينتهى الكون؟

* ماذا وراء الكون؟

بالطبع، اقترحت أجوبة كثيرة لتلك الأسئلة:

* الكون عبارة عن اتصال مكانى زمانى ذى أربعة أبعاد، بدون بداية ولا نهاية، مثل السطح الكروى.

* بدأ العالم بالانفجار العظيم، ولم يكن هناك مكان ولا زمان قبل ذلك، يعنى لا شىء.

* العالم سوف يتمدد بلا نهاية.

* العالم سوف يبرد إلى الموت.

* سوف ينكمش العالم إلى بدايته الأولى (التقلص أو الطوى العظيم).

نحن نُواجه بالثقوب السوداء، السفر - فى مجال الزمن - إلى الوقت السابق، ميلاد عوالم حديثة، خصوصًا من قبل علماء أصحاب عقول خصبة مثل ستيڤن هاوكنج (كمبريدج).

المشكلة، أن كل تلك الأجوبة تقع فى مجال التخمين والفلسفة، بل وحتى الأيديولوچى أكثر مما تقع فى مجال الفيزياء.

يمكن القول إن علماء الفلك المعاصرين، أصابتهم الرهبة من جراء الألغاز المتزايدة

فى الكون، كما حدث لعلماء فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر وما قابلهم داخل الذرة وما دونها، ولكن أيضًا العكس يصح! على الأقل فى حالة ستيڤن هاوكنج، الذى لم يرَ مكانًا لإله فى الكون.

هل تنطبق عليه الآيتان ١٤، ١٥ من سورة الحجر ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فكرة الانفجار العظيم تخلو من أى معنى، إلا إذا فسرت الحدث بأنه خلق من العدم للزمن والمكان والمادة فى الوقت نفسه.

بدون ذلك الخلق، كيف جاءت المادة ذات الكثافة الهائلة التى انفجرت؟ فى عام ٢٠٠٠، حاول المعمل الأوروبى لفيزياء الجسيمات CERN فى چينيڤ أن يعيد تهيئة الحالة المرجح أنها وجدت بعد الانفجار الكبير بـ ١٠ ميكروثانية.

أنتجوا الكواركات ووجدوا شاهدًا على حالة جديدة للمادة النووية Quark - Gluon Plasma كثافتها تزيد عشرين مرة على المادة النووية المعروفة. أنجزوا ذلك بعمل صدام لأيونات الرصاص الثقيل فى درجة أعلى مائة ألف مرة من حرارة مركز الشمس. ولكن للأسف، ليست الأهمية العظمى لما حدث فى اللحظة الأولى لوجود الكون، ولكن فى اللحظة السابقة لذلك.

من كل ما سبق، يمكننا القول إنه ليس فى الفلك ولا غيره من العلوم ما يؤدى إلى الإلحاد أو المادية، ولكن الذى أدى إليه هو الحكم المسبق أو المنحاز فى عقول هؤلاء الأشخاص.

وفى الواقع خيالات هاوكنج أقرب للفكر الدينى من العلم التجريبى، وما هو إلا ضحية للادعاء الأيديولوچى فى الحصول على الحقيقة المطلقة، فما حصل عليه، هو وأنداده، لا يزيد على نماذج محتملة، بشكل أو بآخر، للحقيقة.

ولكن، هل ذلك عبادة أوثان؟ تجسيد الحقيقة فى مفهوم إنسانى، سابقًا فى شكل تماثيل، وحاليًّا فى شكل افتراضات علمية؟.

وعبادة التماثيل أولًا، والعلم أخيرًا.

بكلمات أخرى، فعلم الفلك أيضًا معرض للزج به فى الأيديولوچيا، تمامًا مثلما فعلت الداروينية والفرويدية، ونقول بهذا وداعًا للعلم.

■ علم الأحياء

١ ـ التطور: كخلق مبرمج

شهد «علم الأحياء وعلوم الحياة» ثورته الكوپرنيكية(*)، والتى أشعلها كتاب تشارلز داروين «أصل الأنواع» (عام ١٨٥١)، قرابة خمسين عامًا قبل ثورة الفيزياء.

واليوم يؤمن رجل الشارع فى الغرب أن الإنسان لم يُخلق كما هو، بل تطور بواسطة عمليات ملائمة وتأهيل وانتخاب طبيعى، من جده الأكبر الذى يجمعه كسلف مشترك مع القردة.

أشعلت نظرية داروين الصدامات فى المحاكم الأمريكية بين من يؤمنون بالخلق الخاص، وأولئك المؤمنين بالتطور، وصمم كل طرف على أن أولاده لن يتعلموا إلا ما يرونه صحيحًا بالنسبة لنشأة الانسان. ولقد أصبحت «الداروينية ـ Darwinism» الآن فى الغرب بمثابة الأيديولوچية، حتى أن من يعارض نظرية داروين فى بعض الدوائر يعتبر «خاطئ سياسيًا ـ Politically incorrect»!.

وقد وُجد أقدم ما يعتقد التطوريون أنه من «أشباه الإنسان» أو «ما قبل الإنسان» فى إثيوبيا، ويرجع عمره إلى حوالى ٤, ٤ ملايين سنة. وقد اكتشف العلماء المتخصصون تشابهًا فى الجينات بين الإنسان والشمپانزى بنسبة ٤, ٩٨٪، وهذا الفرق البسيط (٦, ١٪) هو الذى صنع كل هذا الفرق بين الكائنين!

وقد تكلم القرآن عن الخلق التطورى المتمهل ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

(*) نسبة إلى كوبرنيكوس الذى أعلن أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، وكان ذلك يمثل ثورة فى علم الفلك. واعتبر المؤرخون ذلك هو الخط الفاصل بين العصور الوسطى والعصر الحديث فى أوروبا.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة].

هذه الأيام، قد تكون مثل أيامنا أو تكون سنة أو ألف سنة أو خمسين ألف سنة، أو مليونًا، أو حتى أكثر. ويتخذ المؤمنون بالتطور هذه الآيات وغيرها فى القرآن الكريم حجة على أن هذا المفهوم لا يتعارض مع القرآن الكريم.

ويحتج المؤمنون بالخلق المباشر بأن التشابه بين الكائنات لا يثبت التطور، وأنه لم يتم اكتشاف حفريات تمثل حلقة وصل بين أشباه الإنسان والإنسان، هذه الحلقات التى يحتم مفهوم التطور وجودها.

كذلك لم تستطع الداروينية إثبات أو حتى شرح كيفية:

- ظهور الحياة.
- ظهور الإنسان ذى الوعى وملكة اللغة.
- انتقال القدرات المكتسبة بواسطة الوراثة.

كما ثبت مؤخرًا أن التطور لم يكن مستمرًّا، ولا لازمًا، ولا متناميًا، ولكنه حدث فى قفزات. كما لم نلاحظ حالة واحدة ارتقت فيها سلالة إلى أخرى، فقط ظهر التطور داخل النوع نفسه. بكلمات أخرى؛ لا توجد فى تاريخ الحياة ـ كما تعرفه الإنسانية ـ حالة واحدة قفز فيها القرد إلى إنسان.

وربما يمكن فك ذلك الاشتباك إذا اقتنع المؤمنون بالخلق الخاص بأنه يمكن النظر إلى التطور كنوع من الخلق الإلهى، وأنه ليس من الضرورى أن يستبعد كل طرف الطرف الآخر(*).

٢ ـ ثورة الجينات

احتجب «علم الأحياء» لعقود طويلة نتيجة الانبهار بالفيزياء. وإذا كان مصطلح «چينات»

(*) هناك مدرسة قوية تعرف باسم مدرسة «التطوير الإلهى Theitic evolution» تؤمن بهذا الرأى وتقدم الأدلة عليه. انظر كتاب «كيف بدأ الخلق» للدكتور عمرو شريف ـ مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١.

قد ظهر عام ١٩٠٦، وبدأت ملامح مفهوم «الچين» تتحدد عام ١٩٠٩، فإن علم الأحياء قد بدأ فى التطور إلى علم جديد ابتداء من عام ١٩٥٠، حتى أصبح القرن العشرون هو «قرن الچينات»، أى الوحدات المكونة للكروموزوم والتى تنقل الصفات الوراثية.

الآن، يعتبر البيولوچيون الكائنات الحية كائنات عضوية تحولت ماديتها الأولى إلى مواد أكثر تعقيدًا، ثم ترتبت بدرجات مختلفة من التكامل.

تعددت الآن وجوه دراسة «الإنسان»: البعد الفيزيائى (علم الذرة)، البعد الكيميائى (علم الجزيئات)، باعتباره كائنًا حيًا (علم الخلية)، باعتباره جسمًا ذا وظائف (علم وظائف الأعضاء)، قدراته العقلية (علم النفس)، قدراته اللغوية (علم اللغويات)، كائن اجتماعى متفاعل (علم الاجتماع)، تطلعه الدينى (علم الاجتماع الدينى).

وقد حصل چيمس واتسون (ولد عام ١٩٢٨)، وفرانسيس كريك (ولد عام ١٩١٦) على جائزة نوبل، لتوصلهما إلى معرفة البناء الحلزونى المزدوج لجزىء الحمض النووى منزوع الأوكسجين «DNS - Desoxyribonuclcic Acid» الذى تتكون منه الچينات.

وفى عام ٢٠٠٠، استطاع العلم فك شفرة چينات الإنسان(*)، وتبين أن شفرتنا الوراثية تتكون من حوالى ٢٥ ألف جين وحوالى ١,٣ بليون زوج من الحروف. وفورًا دخل ذلك الإنجاز العظيم فى عالم الربح والتجارة، عن طريق كريج فينتر ـ مؤسس شركة چينوميكس فى روكفيل، وأطلق على فينتر اسم بيل جيتس تكنولوچيا الچينات (واشنطن پوست). بذلك خطا الإنسان خطواته الأولى من أجل تحسين نوعية الإنسان.

وبذلك أصبح علم البيولوچيا الجزيئية (بعد أبحاث الفضاء) المرشح لأن يكون «الصناعة المتنامية الأولى» فى القرن الواحد والعشرين. وينبغى أن ننظر بجدية إلى محاذير هذا الأمر، حتى لا نقع فى الأسوأ؛ «استنساخ الإنسان ـ Cloning of man»، وصحب ذلك أن وقع الإنسان فى وهم أنه قد أصبح حاملًا لعبء إعادة إنتاج نفسه، وأنه قادر على تضييق الفارق بين المصنوع والمخلوق (المُنتَج والمولود).

٣ ـ لغز الحياة

ما زال أشد المخلصين للداروينية ـ مثل ريتشارد دوكنز (أستاذ البيولوچيا الجزيئية فى جامعة أكسفورد) ـ أبعد ما يمكن ـ كما كانوا دائمًا ـ عن تفسير ظهور الحياة.

(*) تم ذلك من خلال مشروع «الجينوم البشرى ـ Human Genome Project».

فما زالت «الوصلة المفقودة» بين المادة غير الحية والحياة، مفقودة. فلا أحد يعرف كيف تكون «السائل الأوَّلى ـ Primordial Soup» الذى نشأت منه الحياة منذ حوالى ٣,٨ ملايين سنة.

تضعنا نشأة الحياة فى معضلة «البيضة أم الدجاجة، أيهما أولًا؟». ماذا جاء أولًا؛ الأحماض النووية التى تتكون منها البروتينات، أم الأحماض الأمينية (الدنا DNA والرنا RNA) المطلوبة لتكوين الأحماض النووية؟ هل جاءت الحياة إلى الوجود بالتنظيم الذاتى؟ كما زعم ستيوارت كوفمان عام ١٩٩٣ فى كتابه «مصادر النظام: التنظيم الذاتى والانتخاب فى التطور». هل جاءت الحياة بمحض الصدفة؟ هل ظهرت الحياة فى لحظة تحت ظروف كيميائية ومناخية لا تتكرر؟.

عندما أجرى ستانلى ميللر تجاربه عام ١٩٥٢ على «السائل الأولى ـ Primordial Soup» الذى تصور أنه يتكون من الماء والميثان والأوكسچين والأمونيا، أنتج حمضين أمينيين، ليس أكثر.

وعندما أجرى جونتر فاختر شاوسر (ميونيخ) تجاربه عام ١٩٩٧، على سائله الأولى الذى يصوره من الميثانثيول وأول أكسيد الكربون وسلفات النيكل وسلفات الحديد، حصل على جزيئين عضويين، ليس أكثر. ولكن خلق الحياة لم يحدث فى التجربتين.

وقد حاول بعض علماء البيولوچيا حل مسألة خلق الحياة عن طريق المحاكاة بالكمبيوتر، ولكن عمليات الكمبيوتر لا تنتج حقائق ولا تحل محل التجارب.

وإذا كانت «الحياة» محض صدفة، فأى صدفة كانت؟ أليس حدث متفرد مثل هذا جديرًا بأن يطلق عليه تدخل إلهى؟ أى عملية الخلق.

وما أراه أن فكرة الاحتمال أو الصدفة تدعم فكرة الخلق الإلهى. وفى الحقيقة، يدرك كثير من البيولوچيين المعاصرين أن العالم مبنى بطريقة تفوق الفهم الإنسانى، ويدركون أن نظرياتهم وافتراضاتهم الكثيرة تعكس محدودية الفكر الإنسانى أكثر مما تكشف الحقيقة.

٤ ـ الداروينية الاجتماعية

تؤكد الداروينية الاجتماعية حتمية تأثير العوامل البيولوچية على الظواهر الاجتماعية للإنسان. مثال ذلك: تبرير التصرفات الإنسانية فى الغرب ـ بما فى ذلك الشذوذ الجنسى ـ على أساس الچينات، دون أن يكون هناك أى دليل على ذلك، كما أصبحت الچينات تقدم العذر

للجرائم! ألم تكن الضحية مخطئة عندما مرت بطريق المغتصب؟ هل كان لدى المغتصب أى خيار سوى أن يغتصب الضحية، ألا يؤكد ذلك الدستور الچينى!

ومن الغريب، أن الداروينية الاجتماعية ـ رغم حتميتها ـ تعلق أملًا كبيرًا على التعليم!، ألا تدعى أن عقول الأطفال «خالية تمامًا» ويمكن ملؤها ـ حسبما نريد ـ بالتعليم، وفى هذه المرة المخطئون ضحايا، بسبب تعليمهم وليس بسبب چيناتهم؟!.

ألا تمثل الداروينية الاجتماعية مدخلًا قاتلًا للأخلاق فى الغرب؟!.

■ علم النفس

أسهمت الفرويدية ـ بكل تأكيد ـ فى المادية الإلحادية بقدر ما أسهمت الدَّاروينية، وفى كلتا الحالتين تم استخدام العلم للترويج بشكل سيئ للنظريتين.

وقد قام سيجموند فرويد (توفى عام ١٩٣٩) بسلسلة من الدراسات أدت إلى بعض الاكتشافات فى مجال الوظائف الروحية والعاطفية والفكرية للنفس، وقد رأى فرويد أن هذه الوظائف مبنية فى ثلاثة مستويات: «الهو» (اللاوعى)، والـ «الأنا» (الأنا الواعى)، و«الأنا العليا» (الضمير). لكن فرويد هبط بـ «الأنا» من عليائها التى وصلت إليها مع هيجل وفيخته، وجعلها من صنع (الهو) المسيطر عليه الغرائز، بدلًا من أن يكون المتحكم فيها هو الضمير (آندريه جرين).

وبناء على هذا التصور، أقنع فرويد نفسه بالآتى:

- البناء النفسى للفرد تحدده مسبقًا بيئته ونشأته.
- ينشأ الدافع الحاسم لتصرفات الإنسان من اللاوعى؛ حيث لا دور لقوانين الزمان والمكان والمنطق.
- يحرك الفرد عدة دوافع غريزية، أهمها الدافع الجنسى، والوسيلة الأساسية للتحكم فيها هو التسامى بها نحو تحقيق أعمالٍ مفيدة.
- مبدأ الشهوة له اليد العليا فى التحكم فى حياة البشر.

ويبدو أن هذه المفاهيم قد دعمتها النجاحات العلاجية لمرضى فرويد الذين يعانون من (الهيستيريا). والخطأ الكبير الذى وقع فيه فرويد أنه اتخذ من النجاح العملى فى علاج الحالات

المرضية دليلًا على صدق الافتراضات الأساسية التى شكل على أساسها تصوره عن بنية النفس الإنسانية السَّوية.

وبإدخال منهج التحليل النفسى الفرويدى إلى العلاج النفسى، أصبح فرويد ـ المتقد حماسه للإلحاد، والمادى المتمكن، صاحب الأحكام المسبقة عن سلوك الإنسان ـ ذا تأثير هائل على علم نفس الإنسان وكذلك علم الاجتماع الدينى.

وقد اتخذ الكثيرون الفرويدية عذرًا للتنصل من مسئولياتهم، أليست تصرفاتهم صادرة من اللاوعى؟ وأصبح التحرر من (إملاءات الضمير) على قمة قائمة الواجبات.

باختصار، لا تكتفى الفرويدية بأن تغذى المادية والجنس ومبدأ أن اللذة فوق كل شىء، بل تنفث السموم فى صرح التقاليد والأخلاق. ويرى ويليام أوفلاس أن علم النفس الفرويدى أصبح المرض الذى يحتاج للعلاج!. وأنه حين أراد فرويد أن يبدد «أوهام الدين»، فقد انتهى الأمر بأن أصبح من الضرورى تبديد «أوهام فرويد» عن طبيعة الإنسان.

وفى الواقع، لقد أصبحت الفرويدية شكلًا جديدًا لدين سحرى زائف، تحتل العلاقة الجنسية فيه مكانة بارزة. وأصبح فرويد وزملاؤه يمارسون الاستبداد السابق للكهنوت المسيحى.

فعندما أنكر ألفريد أدلر (توفى عام ١٩٣٧)، وكارل جوستاف الصغير (توفى عام ١٩٦١) محورية الجنس، واعتقدا فى أهمية «نزعة السيطرة»، وحقيقة بناء «الذاكرة الجمعية» أو «اللاوعى الجمعى»، اعتبرهما الفرويديون مجدفين ومهرطقين لا يجوز الاتصال بهما.

وكما حدث لعلماء فيزياء الجسيمات متناهية الصغر (فيزياء الكم)، اقترب بعض علماء النفس بعد الفرويدية ـ مثل إريك فروم ـ من حكمة الشرق. وكانت متمثلة ـ فى حالة فروم ـ فى فلسفة «زن البوذية»، وذلك بعد أن شك فروم فى كفاية الفكر والمنطق الإنسانى، بل إنه أدرك فراغ الغرب وأن عقلانيته ما هى إلا أسطورة.

■ أبحاث الدماغ (المخ)

أعلن العلماء فى الولايات المتحدة، أن العقد الأخير من القرن العشرين هو عقد «المخ البشرى»، وفى ألمانيا دعا يود بيرت ساكمان ـ الحاصل على جائزة نوبل ـ أن يُخصص العقد الحالى من القرن الواحد والعشرين للبحث فى «المخ البشرى».

إن سر أهمية هذا المجال أن المخ هو مكان التقاء المادة والعقل، وهو مجال صعب بقدر ما هو جذاب؛ لأن «البحث فى المخ» عبارة عن مهمة دوارة: نظامًا معرفيًّا، يحلل نفسه!.

يبدو ذلك سهلًا عندما تنحصر المهمة فى الاستجابات الحسية والحركية، والغرائز المماثلة لما عند الحيوان، ولكن عندما يتناول الأمر العمليات العقلية التى تميز الإنسان وحده، مثل العواطف والانفعالات، والأفكار، والذكريات، والنوايا، وقوة الإرادة، فالأمر يختلف.

لقد حدث تقدم كبير فى تقنيات دراسة المخ، ومنها تصوير المخ بالأشعة المقطعية، والتصوير بالرنين المغناطيسى والتصوير بتقنية الانبعاث البيزوترونى، وقد أمكن بهذه التقنيات البحث فى المخ الإنسانى دون تدميره.

وبعد فرويد بمائة عام، لم يعد التركيز على الوعى الإنسانى والتوظيف «النفسى والجسدى» للنفس الإنسانية، ولكن على أبسط وظائف المخ؛ كيف تعمل حواسنا؟ كيف تعمل الذاكرة؟ إن المشكلة أن نحنا وجود بين المادة واللامادة. وكما أن علم الأحياء ليس علم كيمياء تطبيقية، فإن علم النفس ليس علم أحياء تطبيقى (فيليپ أندرسون). باختصار، تبدو قراءة الأفكار والمشاعر داخل الستة عشر بليون خلية التى يتركب منها المخ عملية مستحيلة.

فقط، بعد التقدم فى دراسة هذه المجالات البسيطة (نسبيًّا)، سوف يكون هناك معنى لمحاولة اكتشاف أعظم الألغاز: الوعى بالهوية والذات. كيف «ينتج» الوعى؟ وكيف يتفاعل مع الخلايا العصبية فى المخ؟ هل الوعى بالذات يزيد على كونه مجرد إدراك حسىٍّ؟ وكيف يستمر ذلك الوعى طوال العمر؟

إحدى المشاكل هى أن «الوعى الذاتى» لا يمكن أن نجده إلا فى الإنسان فقط، ولذلك نقوم بدراسته من خلال المراقبة الذاتية؛ إذ لا يمكن - بالطبع - تعريض البشر لتجارب تتناول الشبكة العصبية لأدمغتنا. كيف يمكننا بوعينا الذاتى حل لغز «وعينا الذاتى»؟!.

بناء على ذلك، اعتبر جون هورجان (وآخرون) أن حقيقة الإنسان لا تقف عند وجوده المادى، بل أن «روح الإنسان» تمثل امتدادًا له، بل وتمثل امتدادًا خارجيًّا للعلم بصفة عامة.

وعلى العكس، حاول بعض علماء الأحياء الذين تخصصوا فى علوم الأعصاب نفى وجود الروح، ومن هؤلاء فرانسيس كريك، الذى يرى أن الإنسان (فى التحليل النهائى) ما هو إلا كومة أعصاب. ويقف فى مواجهة هذا الرأى أحد أنصار الرأى الأول، وهو چون إيكلز البريطانى (الحاصل على جائزة نوبل فى أبحاث المخ)، والذى لم يترجم نفس المعلومات

بأسلوب مادى، ولكن طرح فى كتابه «الذات والمخ التابع لها» نظريته فى الوعى، والتى تعتمد على ثنائية استقلال الوعى عن أساسه المادى، وذلك على غرار النظرية الكمية، التى ترى أن ظاهر المادة يختلف عن حقيقتها.

الفرق ـ ببساطة ـ بين إيكلز وكريك، أن الأول متدين والثانى ليس متدينًا.

المخ هو أعقد وجود يواجه العلم، وإذا كان البعض يظن أن اللجوء للكمپيوتر يمكن أن يحل مشكلة فهم المخ، فإن الفاهمين يسألونهم؛ كيف يمكن أن ننقل للكمپيوتر ما لا نفهمه! وعينا الذاتى، أى روحنا؟!

■ إعادة اكتشاف الروح

من هذا التلخيص للخطوط العريضة للتطور العلمى فى القرن العشرين، يمكننا القول بأن العلم لم يعد ينكر جدارة طرح الأسئلة الأساسية الكبرى:

- لماذا يوجد الوجود بدلًا من ألا يوجد شىء، أى لماذا ظهر الوجود بدلًا من أن يستمر العدم؟
- من أين جاء العالم؟
- من أين جاء الذكاء الإنسانى؟
- لماذا نحن هنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟

نعم، يعصف بالإنسان (فى الغرب) هذا الإلحاح العقلى للمعرفة، وأيضًا الاحتياج العاطفى للتفسير. فأين المفر:

١ ـ الطريق إلى الشرق

كما رأينا مع الفيزياء الحديثة، أصبح العلم اليوم أكثر استعدادًا ـ من أى وقت مضى ـ للاعتراف بأن فى استطاعتنا صياغة أسئلة لا يمكننا الإجابة عنها؛ لأن ذلك يفوق إمكانياتنا المعرفية.

نحن ـ فى الحقيقة ـ نخدع أنفسنا إذا حاولنا تقديم إجابات علمية عن أسئلة فلسفية. إن أقصى ما يستطيعه العقل البشرى هو اكتشاف القوانين الطبيعية التى تناسب طريقة عمله (جاستون باشلارد).

ولما كان وصفنا شديد الاختزال للكون هو الذى يُمكننا من أن نفهمه، فإننا فى الواقع نفهم هذا الوصف المختزل بدلًا من أن نفهم الحقيقة ذاتها، وما يبدو لنا جميلًا لأنه «بسيط» إنما هو كذلك نتيجة التبسيط، بل لقد أصبحنا مستعدين لأن نعتبر الحقيقة هى الخطأ!! (كابرا).

وفى مجتمعات ما بعد الحداثة، لم يعد الناس يتوقعون من العلم أن يخرج بمفهوم واحد محدد للحقيقة، ويبدو أن كل ما يمكن للناس أن يفهموه عن الوجود مجرد افتراض بـ:

- أن كل شيء نسبى ـ طبقًا لأينشتاين.
- أن كل شيء مباح ـ طبقًا لفرويد.
- أنه تم إثبات أن لا شيء يمكن إثباته ـ طبقًا لجوديل (حتى لو لم يكن الناس قد سمعوا به).

لذلك يمكن للمرء أن يلاحظ قلقًا عميقًا بين العلماء المعاصرين؛ حيث يبدو أنهم يشعرون بأن الغرب قد وقع فى أخطاء غاية فى الفداحة، مما جعل شخصًا مثل إيليا بريجوجين يتوقع «عودة الافتتان والانبهار بالطبيعة»، طالما أصبحنا متأكدين «أن الإنسان قد وصل إلى آخر حدود ما يمكن التيقن منه». لذلك أصبحت الحكمة الشرقية لازمة، ولا يمكن الاستغناء عنها لتصحيح ذلك.

ولذلك، وقع عالم عبقرى فى علم الأحياء والأعصاب مثل هانثر ستنت (من جامعة بيركلى) فى غزل مع البوذية.

وبدوره، يحاول فريتوف كابرا فى كتابه الدينى «تاوية(*) الفيزياء» ١٩٧٥، ١٩٨٢، دمج العلوم الطبيعية كما عرفها الغرب مع التصوف الشرقى، فيما يُسمى بـ«فيزياء العصر الحديث». فى هذا الكتاب ـ مع كتب أخرى أهداها إلى ممارس الشامانية (كارلوس كاستندا)، ومعبود موسيقى الجاز الحر (چون كولتران)، والفيزيائى (فيرنر هايزنبرج)، والحكيم الهندوسى (كريشنامورتى) ـ لفت كابرا الانتباه للفروق الحيوية بين وجهات النظر الغربية التى تربى عليها وبين الفلسفات الشرقية، كما تظهر فى الهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية والتاوية وعقيدة زن. وهو يرى أن الغرب يُفَضل:

(*) التاوية: مذهب فلسفى دينى صينى، يتبنى وحدة الوجود، وهى تشكل جزءًا من الكونفوشيوسية، ممتزجًا مع البوذية.

- القيم الذكورية على القيم الأنثوية.
- التحليل على التركيب.
- العلم على الدين.
- التنافس على التعاون.
- التقدم على المحافظة.
- القنبلة على بوذا.
- عالم ميكانيكى ثابت على عالم حى متحرك.

ويمكن للمرء أن يضيف الكمية على الكيفية.

ويتفق كاپرا مع كثير من المتصوفين عبر العصور، أنه يمكن الوصول إلى المعرفة المطلقة - كتجربة وليس كفكرة فلسفية - من خلال أحوال خاصة للوعى، وفقط بعد إسكات صوت العقل.

وكما فى التصوف، يتوقع كاپرا أن تزيل الفيزياء الحديثة كل المتناقضات (بين المادة والروح، المادة والطاقة، الجسيمات وأمواج الطاقة)، وتصل لنقطة يندمج فيها الملاحِظ والملاحَظ فى وحدة واحدة: وحدة صوفية تتجاوز الفيزياء الحديثة. ويعتقد كاپرا أن كلًّا من الفيزياء الحديثة والتصوف، لا يمكن التعبير عن مكنونه بالألفاظ.

قد يجد كاپرا الراحة فى التشابهات بين رؤية العالم من خلال الفيزياء الحديثة (حسب تفسيره لها) وقصص الشرق الرمزية عن الحقيقة، ولكن هذا لا يثبت صحتهما؛ لأن كلًّا منهما لا يمكن البرهنة عليه. وفى الحقيقة، سيكون من الخطأ أن نرى العلم والتصوف مكملين لبعضهما البعض؛ لأن هذا يقتضى بداهة صحة كل منهما، الأفضل من ذلك أن نراهما طريقتين متبادلتين لحدس الحقيقة النهائية.

ولماذا تَهرَّب كاپرا من بحث التشابهات مع أديان التوحيد الثلاثة الإبراهيمية؟ اعتقد أنه طالما لم يتخل عن الوعى الذاتى والهوية الفردية لشخصه، فلن يتأتى له استيعاب الحقيقة العليا والأخيرة التى تطرحها الديانات السماوية، وسيظل ينظر إليها على أنها عملية وجودية فقط، وليس على أنه إله.

خلص كابرا إلى أن العلم لا يحتاج إلى التصوف، لكن الإنسان يحتاج إلى الاثنين. فالإنسان الغربى يستطيع عن طريق «ثورة ثقافية» باستخدام العلم والإيمان، أن يقهر رؤيته الميكانيكية المتشظية للعالم، وهى السمة الغالبة للعلم الغربى. أى ينبغى أن تتشارك أنوار العقل وأنوار الإيمان، داخل تركيبة معرفية عظيمة. عندها، والكلام ما زال لكابرا، سوف تبرهن التجربة العملية، والخبرة الصوفية على صحة كلٍّ منهما.

٢ ـ النسبية اليائسة

هناك آخرون يميلون للاأدرية بشكل كبير، مثلما رأينا فيما سبق؛ حيث رأوا فى هذه الظاهرة الدينية الجديدة بين العلماء «هجرة إلى العاطفة» (أتلان). بالنسبة إليهم، فالتصوف مع ما يحملونه من تناقض، وغرامهم بالمعارضة مع احتفائهم بها يناقض العقل، يماثل لعبة (الاستغماية). لقد رأوا أن «العلوم» السحرية التقليدية، بمعنى الغنوصية (الباطنية)، لا تقل سذاجة عن «المادية العلمية» القديمة.

لذلك، فمعظم العلماء المعاصرين، بدلًا من محاولة إيجاد طريقة للخروج من مأزقهم المعرفى، اتجهوا إلى الحكمة الشرقية، نحو نسبية يائسة أصبحت علامة على ما بعد الحداثة. أصر هؤلاء الناس على أنه لا يمكن تمييز المنطقى من غير المنطقى. أصبحوا يخجلون من الحديث عن «الحقيقة» و«الصدق» و«العقل» و«الموضوعية»، إلَّا فى شكل «استشهادات مذعورة» (سوزان هاك)، حتى إن فيلسوفًا مثل ريتشارد رورتى بواقعيته المتطرفة ترك البحث عن الصدق. تحددت فلسفته بالأخلاقية أثناء بحثه عن كيف يجعل العالم مكانًا أفضل بدون السؤال عن ماذا يعنى كل ذلك؟

اعتبرت شكوك الحداثة البحث عن تفسير للحقيقة العظمى ليس إلا حنينًا إلى ماضى الأيام الجميلة للجمود العقلى للكنيسة. اعتبرت الحقيقة العظمى، رواية خيالية عظيمة، لا يمكن إطلاقًا الوصول إليها ـ هذا إذا كانت موجودة على الإطلاق ـ والصمت هو الإجابة الأفضل عنها. ألم يكن أينشتاين هو الذى كتب «لا يوجد ما هو أكثر استعصاء على الفهم، من أن يكون العالم مفهومًا!»، أما پول فيرابند فى عمله «فى ترجمتى» فقد صاغها كالتالى: «لقد وصلت إلى الاقتناع أن الأمر كله ليس إلا فوضى مجنونة».

هذه النسبية اللاأدرية، التى قوتها ملاحظة أن الإدراك الإنسانى فى العلم، وأيضًا فى غيره، هو باستمرار ذاتى، بمعنى أنه يتأثر بالقائم بالملاحظة. وكل كائن مدرك يحيا فى حقيقته الذاتية؛ لذلك لا يمكننا فى الحقيقة ملاحظة القائم بالملاحظة. هكذا، لا وجود إلا للحقيقة الذاتية

فقط. نستطيع أن نعرف العالم فقط رمزيًا، كما يتمثل لغويًا ورياضيًا. وذلك ـ بالطبع ـ ليس إلا «مفهوم العقل المهزوم» (يرجن هابرماس).

فى العلوم الاجتماعية، كانت نسبية ما بعد الحداثة اليائسة ذات خبث فتاك. بتصنيفهم «للآخر»، وقبولهم لأى «اختلاف» كان، أصبح علماء الأنسنة (الأنثربولوچى) أقرب للشعراء منهم للعلماء. «لماذا نتباحث اليوم فيما سوف يتغير غدًا على أى الأحوال»؟، هذا هو السؤال الساخر المثالى لعلماء اجتماع ما بعد الحداثة. نعم، يمكن للمرء أن ينقد الأحكام الاجتماعية بتوضيح مدى الذاتية التى هى عليها. ولكن أليس هذا النقد بدوره تأثر بالظروف الاجتماعية للناقد؟ كيف يمكن الخروج من النقد الذاتى مع هذه الدائرة الجهنمية؟

الأسوأ، هى الضربة التى وجهتها «النظرية الكمية» إلى فكرة السببية، مما أعطى مزيدًا من المصداقية إلى إعادة ترديد هجوم (هيوم) بواسطة (ويتجنشتاين) على السببية «لا يمكننا استخلاص الأحداث المستقبلية من التى تحدث حاليًا». أصبحت الحصيلة هى «كل شىء يجوز» بشكل منهجى (فييرابند)، وسرت موجة جديدة من مذهب «الإسمانية»، ترتبط بشدة بالفلسفة اللغوية لـ «لودڤيج ويتجنشتاين». ويعتقد هؤلاء الناس أن اندفاعنا لتلمس الحقيقة الخاصة للكون لن يتعدى على الإطلاق حاجز أسماء الأشياء. وللحسرة، ففى اللحظة التى نطلق فيها اسمًا على شىء، نصبح أكثر ابتعادًا عن حقيقته من ذى قبل. ذلك لأن «حقيقة الشىء سابقة على اللغة»، وأن اللغة «تضللنا مثلما قد تفعل الملابس للجسم العارى» (أتلان).

بهذا الأسلوب، كان طبيعيًا أن يصل (هنرى أتلان) وأصحابه بعد الحداثيين إلى تعددية للإدراك الحسى تبلغ أوجها فى الفكرة القائلة، إن أقصى ما يمكننا فعله، هو أن ننغمس فى مباريات لغوية، «لغويات» (ويتجنشتاين). وهنا، فإن التواجد لكلمة «الله» هى «البرهان» الوحيد والكافى على وجود الله.

كل المحاولات لكشف غموض الحقيقة، بما فى ذلك العلم، والفن، والدين، هى مجرد مباريات لغوية مختلفة التفسير.

نحن لا نستطيع المساعدة فى لعب هذه المباريات؛ لأن أسلوب خلقنا لا يساعد على ترتيب الأمور فى «نظام». ولكن، وفى كل الأحوال، لا ينبغى لنا أخذ أية نتيجة بجدية. فالقاعدة الحاكمة فى أية «لغة» هى: لا تؤمن بها. الحداثة أيضًا، هى مجرد نموذج إضافى يعلن عن نفسه.

خلاصة ما سبق، يمكن للمرء فقط أن يأمل فى أن العلم الغربى سوف يتبع اتجاهاته الموصوفة

نحو اتجاه دينى جديد. ويجب أيضًا على المجتمع الغربى أن ينصرف بصرامة عن ممارسة المادية، التى هى على هيئة استغراق بلا رابط فى اللذة.

* * *

• مذهب المتعة المادية

■ العلم والأخلاق

ليس غريبًا توقع أن العلم لا يستطيع مساعدتنا على معرفة كيف نحيا أخلاقيًا وروحانيًا. إن وظيفته هى تفسير ما هو قائم، وليس ما يجب فعله. بهذا المفهوم، لا يستطيع العلم تزويد المجتمع بالأخلاقيات، ولكن يستطيع بالتأكيد المساعدة على تدميرها، وذلك هو بالضبط ما ظل العلم ـ بفضل سوء إدراكه، وبفضل المتلاعبين به ـ يفعله خلال القرنين الأخيرين بتقويض أسس الإيمان بالله، من خلال مادية «علمية»، وأخيرًا وليس آخرًا، فى علم الأحياء، وعلم النفس، فإذا كان الناس مجرد «حزمة من الإرادة والشخصية»، فلماذا ينبغى أن تصبح لهم حقوق وكرامة؟ (أوفالس).

لم يتظاهر العلم فقط بوجود برنامج بدون مبرمج، لكن الأسوأ أنه تصرف كما لو كان العلم وحده هو الذى يعول عليه، أما ما عداه، بما فى ذلك الفن والدين، فهو مقبول فقط كمجرد زخرفة «حتى انقشعت ضلالات القرن العشرين وجعلتنا نفهم أن الحقيقة العلمية هى مجرد زخرفة للحقيقة» (أتلان). فى الحقيقة، ونتيجة لتأثير العلم الوضعى والمادى، أصبح الغرب «أول حضارة ملحدة فى تاريخ البشرية» (فاسلاف هافيل). حيث لا يوجد مكان لأى شىء لا يخضع لعملية الظاهرة الطبيعية، لا الروح، ولا الإرادة والرغبة، ولا العواطف والفن، ولا الدين. هكذا، نعيش فى حضارة «المنطق»، التى تحتضن فقط العلاقات الكمية، وتعتبر أى قبول حدسى للحقيقة الأولية غير القابلة للانقسام، مجرد «لامنطقى».

■ العلم والحضارة

ينظر الناس للعلماء على أنهم يعملون بعيدًا داخل «أبراجهم العاجية»، تمامًا مثلما دفن كارل ماركس نفسه داخل مكتبة لندن. وفى الحقيقة، قد لا تكون لغتهم، ونظرياتهم، وحساباتهم، فى متناول «رجل الشارع». ومع ذلك، سيكون من الخطأ الجسيم الاعتقاد أن العلم والأفكار

السياسية الخلاقة لم تجد طريقها نزولًا إلى المجتمع العريض. وقد يتطلب الأمر قرنًا بكامله، وعندها ـ وبشكل أكثر نجاحًا على الأرجح ـ فإن فكر أناس مثل ماركس، وداروين، وفرويد، ونيتشه، وأينشتاين، سوف يشكل نموذجًا يحدد للعامة ما يُعتبر صحيحًا: المنظومة الكاملة من المعتقدات، والقيم، والأساليب والمفاهيم التى يشترك فيها مجتمع ما. لذلك، فإن التطورات فى الماركسية، والعلوم الطبيعية التى أوضحناها حتى الآن، لها صدى مباشر على الحضارة الغربية، وأيضًا من خلال العولمة، على الفكر الإنسانى والسلوك العالمى.

ويصح ذلك أيضًا على الشيوعية، والتى كما قد قلت، قد اختفت مثل الشبح، ولكنها قد تركت هى أيضًا آثارها. وفى الحقيقة، فإن كل ديمقراطية غربية بما فى ذلك الولايات المتحدة، هى اليوم أكثر اشتراكية مما يظن كثير من الناس. لقد وصلت الرفاهية إلى حد يمنع التوفير، ويغذى الاعتماد على العناية التى توفرها الدولة. لقد خفضت الدولة الغربية بنجاح التفاعل الاجتماعى بين رعاياها، بأن قدمت لهم الذى حققته من قبل المبادرة المحلية. وفى كل مكان تقريبًا، وليس فقط أثناء اجتماعات مجموعة الثمانية (G8)، يتغذى المرء على مشاعر الإثارة والتهييج المضاد للرأسمالية من «مدارس الإدراك الشاملة» التى تحل محل كليات الصفوة. توضع الثقافة فى متناول الجميع، حتى لو اقتضى ذلك تدمير مؤسسات ثقافية. والأسوأ، فالمرء على استعداد لإضعاف المتين اقتصاديًا، حتى لو أدى ذلك إلى إضعاف الموقف الاقتصادى للجميع.

ثورة الطلبة اليساريين عام ١٩٦٨ ضد «رأسمالية الدولة الاحتكارية» هى مثال واضح على عملية «نزول» المعلومات هذه. وبينما لم يصل الطلبة إلى شىء على المستوى السياسى، فقد غيروا بالتأكيد من حضارتهم. ومن يومها، فى أوروبا، أصبحت اللغة وكذلك الزى بعيدين عن الرسمية، وتحرر الجنس، وانحط قدر الأسرة، وحظيت المخدرات بكثير من القبول، واحتُقرت السلطة بكل أشكالها.

وفى العموم، فإن «الميراث» من العلم، والعلم الزائف، من القرن التاسع عشر والقرن العشرين، بدأ يثمر مجتمعًا لاأدريًا، نفعيًا، استهلاكيًا موغلًا فى الفردية، وليبراليًا، بما يعنى حضارة تنشد المتعة حتى النخاع، ونحن نراها عن كثب فى هذه الأيام.

• اللذة ـ أولوية المتعة ـ كأسلوب حياة

يقوم مذهب المتعة على شكل فظ من المادية، يمكن اقتفاء أثره فى كل مجالات الحياة الغربية التى تتضمن:

الدين ـ القيم ـ السلام ـ الاقتصاد ـ الإعلام ـ التعليم ـ الحياة الأسرية ـ الجنس ـ الإجهاض ـ المخدرات.

بالتأكيد، لست أنا أول من يتهم العالم الغربى باتباع ذلك الطريق المفضى إلى الكارثة. من بين المسلمين، الفيلسوف الفرنسى المسلم رينيه چينو، أو الشيخ عبد الواحد يحيى من الطريقة الشاذلية (مات ١٩٥٢ فى القاهرة)، قد فعل ذلك بكتب منذرة مثل «عصر الكم وعلامات الوقت»، وأيضًا «مشكلة العالم الغربى». وكما فعل النمساوى محمد أسد (إلياس ليوپولدڤايس، مات ١٩٩٢)، بتحليله المتقد «الإسلام على مفترق الطرق» الذى نشر فى لاهور عام ١٩٣٤. وأيضًا، قام بذلك «ويليام أوفالس» الأمريكى المهموم، صاحب القيم المحافظة، بكتاب يفصح قليله عن الكثير: «قداس للسياسات الحديثة ـ مأساة التنوير وتحديات الألفية الجديدة» (١٩٩٧).

كان چينو ذا إدراك عظيم، عندما حدد أن المفهوم الجوهرى «للحركة الإنسانية»، الذى صيغ خلال فترة النهضة الأوروپية، يلخص مقدمًا إجمالى البرنامج الذى ستأتى به الحضارة المعاصرة: كل شىء سوف يختزل إلى المستوى البشرى، وإلى المقاييس البشرية، لذلك كان من الممكن التنبؤ بأن الحضارة المعاصرة سوف تصل فى النهاية إلى الغوص مرحلة تلو الأخرى، إلى مستوى أدنى الرغبات الإنسانية.

لذلك، أستطيع الاختصار، وسوف يجنبنى ذلك الانطباع بأنى شخص أخلاقى فى غاية الجمود، أو شخص أعور، فبالطبع عندما أنتقد التطور الغربى، لا أتجاهل أن عالم الإسلام، هو أيضًا ليس بحالة طيبة، ويعانى من غالبية هذه المساوئ نفسها، مع الأخذ فى الاعتبار أن الإسلام فى جوهره، والخبرة الحياتية للمسلمين ليسا بالضرورة متطابقين.

١ ـ دين ما بعد الحداثة

تعلم جيدًا الرجل العصرى فى أوروپا درس اللاأدرية، ورفض ـ بالأسلوب المثالى لما بعد الحداثة ـ كل الأديان باعتبارها «روايات عظيمة». وبالتالى غدا الدين ـ عند التسامح معه ـ مهمشًا، وفى الدول العلمانية انزوى بعيدًا عن الأنظار. يؤمن معظم الناس فى الغرب أن الدين يتجه نحو الاختفاء تدريجيًا، ولذلك يصابون بالذعر عندما يصل إلى علمهم ما يتعلق بالحيوية المتجددة للإسلام (هيوبرت سيورت).

وعلى النقيض من إيران الحالية، فالنظام العلمانى ـ الذى يحظر أى دور دستورى لرجال

الدين فى الحكومة ـ هو فى الوقت الحالى النظام الذى لا خلاف عليه فى أوروبا، على الرغم من أن الملكية البريطانية، وملوك وملكات الدول الإسكندناڤية ما يزالون هم رؤوس الكنيسة الأنجليكية، والكنيسة اللوثرية على الترتيب.

أما عن العلمانية، فهى مختلفة؛ حيث إنها مطبقة حرفيًّا فى فرنسا وحدها. كل الدول الأوروبية الأخرى تسمح للدين بالتكامل إلى حد ما مع الدولة والمجتمع. وفى الحالات المتطرفة، مثل ألمانيا، يمكن أن يصل ذلك حتى إلى فرض ضرائب من جانب الدولة على الكنائس الفردية. وفى الولايات المتحدة، فإن اجتماعات الأحزاب، والجلسات الافتتاحية للكونجرس تبدأ بالصلاة (ويشمل ذلك صلاة إسلامية)، كما أن الرموز الدينية (بما فيها الهلال الإسلامى) ترفع على سارية البيت الأبيض، حتى إن الرئيس كلينتون قد دعا المسلمين لمأدبة الإفطار فى مقره الرسمى.

لكنه سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن الدين، فى الدول الأوروبية العلمانية، يمثل أكثر من زخرفة، أو عنصر فولكلورى، أو تقليد عار من القوة. لذلك، فإن جيرهارد شرودر المستشار الحالى فى ألمانيا، لا يستطيع فقط إلا توجيه خطاب إلى الأمة فى التليفزيون، فى مناسبة الكريسماس، ولكن بدون ذكر المسيح أو الله فى هذا الخطاب.

وهكذا، لأنك ألقيت بالدين خارجًا من الباب الأمامى، فقد عاد مرة أخرى متنكرًا من خلال الباب الخلفى. ما خسرته الكنائس ـ وخسائرها من جهة ثقة المسيحيين فيها، ومن ثم حضورهم إليها مأساوية ـ حصلت عليه الطوائف، وجماعات الأديان الشبابية والحلقات الفئوية السرية. هناك جماعات العهد الجديد التى تتعبد داخل أهرام الجيزة. وتستقطب البوذية قطاعات من الناس الذين يرغبون فى الاعتقاد فى تناسخ الأرواح ليتمكنوا من الحصول على فرصة ثانية. شعر ١٧٪ من مجمل الألمان فى عام ١٩٩٣ بالانجذاب تجاه هذه الفكرة. الانبعاثيون، الذين يعيدون عبادة إخناتون للشمس، استعادوا شعبيتهم مرة أخرى. وبدأ مايكل چاكسون إحياء حفلات إضاءة شمعة «من أجل عالم أفضل».

تحتل الصدارة الآن، بالتساوى، أديان عبادة القمر، والعلموية والتنجيم، والملائكة، والشيطان، وكل شخص يقدم الوعد «بالوعى الكونى». فى الواقع، هذا التنوع الطوائفى الكبير يظل شاهدًا على حقيقة ثبات حجم اللادينية خلال أى فترة زمنية محددة، على الرغم من العاطفة الدينية المتشتتة، والتى تتشكل من الخرافة غالبًا.

هذه الموجة الجديدة من التدين، تجد جذورها فى الحنين إلى التوحد العضوى، والبحث

عن المعنى، وكلاهما غائب بشدة فى الحياة المعاصرة، وخاصة عند أتباع حركة «الخضر» الذين يجددون رابطة مثيرة للغاية مع الطبيعة، تظهر على شكل عالم غامض ومقدس (ومن المثير، كما أوضح أوتو ماركارد، أن لائحة «الخضر» محافظة فقط فيما يتعلق بالمحافظة على الطبيعة، وليس الثقافة).

على العموم، فقد تمت خصخصة الدين فى الغرب؛ حيث أصبح المزيد من الناس «شبه متوحدين» وسعداء بالحياة منفردين بأنفسهم، وفى مثل هذا المناخ المفرط فى الفردية، فإن للأديان السماوية ورجالها فرصة ضعيفة، وأصبح الدين ذاتيًّا بالكلية، وانتقائيًّا، مجموعة من وجهات النظر المتسقة أو حتى المتضاربة، بشرط ألا تعترض طريق الرغبات والعواطف الشخصية.

على الأرجح، لن يقول معظم الناس فى أوروبا عن أنفسهم أنهم ملحدون، ولكن سيعترفون بأنهم مؤمنون بشكل غير محدد بالله، دون الأديان السماوية. هذه التعددية الدينية التى بلا حدود فتحت بالطبع الطريق نحو تسامحية دينية من نوع «كل شىء يجوز».

المسلمون فقط والملحدون هم الذين لا يقبلون النسبية فى عقائدهم؛ لأن الملحد إذا أقر باحتمال خطئه، فسوف يصبح متشككًا أو لاأدريًّا. وكذلك لا يقر المسلم أن الإسلام هو مجرد رؤيته الشخصية للحقيقة، دون صلاحيته للناس أجمعين.

من المرجح أن تنهج الغالبية فى أوروبا الغربية نهجًا إلحاديًّا، مما يشكل النقيض التام للموقف فى أمريكا الشمالية؛ حيث تنتشر حوارات مثل:

«عند هذه النقطة بالطبع، فإن الكنيسة الأسقفية أفضل من المعمدانية...، أو....، ولكن....».

٢ - ثورة القيم

لا يستطيع العلم إنتاج القيم ولا حتى حمايتها؛ ذلك لأن القيم - بالتعريف الذى يقول به العلم - «لاعقلانية» بالكلية. وهكذا، فسوف تنهار مجتمعاتنا خلال ليلة واحدة، إذا لم يكن ٩٩,٩٪ من الناس يهتدون بالقيم التقليدية فى معظم حياتهم. قامت الحضارة الغربية على القيم الأساسية النابعة من الفلسفة اليونانية والرومانية، خاصة الفلسفة الرواقية، والمسيحية، والاعتبارات الإنسانية المبطنة للقواعد المعاصرة لحقوق الإنسان.

وفى الحقيقة، فإن الحضارة الغربية، والوفرة ومستويات الحياة بها، قد قامت مباشرة على

أخلاقيات العمل (الاجتهاد، والاقتصاد فى الإنفاق، الأمانة، الثقة، الدقة، الصبر، الكمال، الاستهلاك المؤجل، التطوير الدائم، القوة)، والأخلاقيات الاجتماعية (التضامن، التعاطف، الطاعة، الاستعداد للتضحية، المشاركة، التواضع، توقير الأحكام الدينية)، والأخلاقيات الشخصية (الترابط العائلى، الشرف، العفة، الإخلاص الزوجى، رعاية الوالدين، احترام ورعاية المسنين).

طبقًا لتحليل عالم الاجتماع من هارفارد دانييل بيل فى كتابه «التناقضات الثقافية للرأسمالية» (١٩٧٦)، فإن المشكلة مع المجتمع الغربى تكمن فى أن نجاحه الاقتصادى يدفع إلى تدمير القيم الجوهرية التى قام عليها. وتظهر تنبؤاته جلية هذه الأيام؛ حيث لا تتعرض معظم القيم الرئيسية السابق ذكرها، فقط لعدم الاحترام، ولكن للسخرية أيضًا. لقد اختلفت فكرة «الشرف» على الخصوص من التعامل، إلا فيما بين عائلات المافيا!.

دائمًا ما يتعامل الشباب المعاصر فى الغرب مع كل قواعد التعامل النزيه على أنها محرمات (تابوهات)، يجب تدميرها لكى يتسنى تحرير وتخليص الإنسان من حكم السلطة. ولقد جنى سلمان رشدى عام ١٩٨٩ الكثير من المكاسب من هذا الاتجاه بكتابه «آيات شيطانية»، عندما شارك بملء إرادته فى التجديف (الكفر) على الله، مع معرفته التامة أن الإنسان المعاصر لم تعد تشغله مثل هذه المصطلحات.

وفى الوقت نفسه، فإن جيل الشباب، سواء أقروا بذلك أو لا، قد أخرجوا للحياة محرمًا (تابو) جديدًا من صنعهم: الموت. كل الحضارات السابقة، على العكس من حضارتنا، قد ساعدت على تقبل الموت. لكننا فى الغرب الآن، قد أنجبنا جيلًا غير قادر على تقبل الموت، ويسمى فيما يشبه الصدمة «غير مؤهل للموت» عند (سليم فروند).

وكم هو معبر، إعلان الوفاة فى جريدة فرانكفورتر الجماينه فى ١٢ من مارس ١٩٩٨، والذى يقول: باى باى يا أولريخ!

النتيجة المترتبة على تجاهلهم للقيم التقليدية، أن أصبحت المجتمعات الغربية طفيلية (ريمى براج) من خلال «الغضب المتجدد» (بيتر سلوتيرجيك)، وأيضًا «البحث المنفلت عن الجديد» (دانييل بيل). لم يكتفوا بالتعدى على «الحق فى الاستمرار» (أورتيجا جاسبت)، بل قد بددوا قواعدهم الأساسية، بدون أن يجددوها.

يسمى بعض المتفائلين هذا الوضع «ثورة القيم»، مشيرين ببساطة إلى أن القيم التى عفى

عليها الزمن، قد حلت محلها قيم جديدة. مع ذلك، فقد فشلت فى العثور على قيمة حقيقية واحدة جديدة، اللهم إلا إذا اعتبرنا القبول العام للزوجين من نفس الجنس، والمخدرات «الخفيفة»، والعلاقات الجنسية المختلطة، والحساسية الفائقة، التى تشمل حصد التوتر بحسبانه من «القيم».

إننا على الأصح، نواجه بجيل جديد، يرغب بدون أى تحكم «أن يبدد طريقه للسعادة»، (ويليام أوفالس)، وتقوم وسائل الإعلام المتخصصة فى إثارة غرائز الجماهير بمساعدته على ذلك، بنفس أسلوب المصارعين الرومانيين القديم (بيتر سلوتيرجيك متحدثًا فى «فاشية التسلية»).

داخل هذا المسار، أصبح الناس غير معتادين على حقائق الحياة - فالحوادث، والمصائب الشخصية الأخرى، والمرض، والكهولة، والموت - إلى حد أنهم أصبحوا فى غاية الحساسية، وغير قابلين للتواؤم بدون مساعدة «مستشارو الأحزان».

يتفق ما سبق مع الملاحظة المثيرة التى أبداها س. ج. جونج «أرنى إنسانًا صحيحًا عقليًا وسوف أقوم بعلاجه!». عندما يبدو حاليًا أن كل شخص فى الولايات المتحدة تقريبًا له طبيبه النفسى، ويسفر الفحص الطبى عن المزيد والمزيد من الاضطرابات العاطفية حتى بالنسبة للأطفال الصغار، مما يدعم الاتهام للمجتمع الغربى بأنه يولِّد قلة الحيلة.

انتحر فى عام ٢٠٠١ ثمانية من الجنود الألمان المعسكرين فى البوسنة، وكوسوفا، ومقدونيا؛ حيث وجدوا أن الخدمة هناك لمدة ستة أشهر «شاقة للغاية» بعيدًا عن صديقاتهم. خلال الحرب العالمية الثانية، كان أجداد هؤلاء بعيدين عن أوطانهم للعديد من الأعوام، ولم يكونوا مجرد دوريات لحفظ السلام، كانوا يخوضون حربًا دموية ثقيلة!.

أدت ما تسمى بـ «ثورة القيم» إلى تحويل التدريس فى المدارس إلى عملية تعذيب. الأطفال غالبًا جاهلون بالقيم، يظهرون أنانية وقحة، وشراسة وعدوانية، وفقدانًا للحوافز الدافعة، والتشبع الإعلامى مع حيز ضيق من الانتباه. لن يستطع معظم السياسيين الذين يتدارسون داخل مكاتبهم وسائل إصلاح التعليم، البقاء لمدة يوم واحد كمدرسين لهؤلاء الأطفال.

تحظى أزمة القيم الغربية حاليًا بالقلق داخل بقية العالم؛ لأن الثقافة فى وقتنا الحالى ليست ثقافة مكان بعينه، بل هى ثقافة عالم وعصر بعينه.

غالبًا ما سينتشر اتجاه ما بعد الحداثة الذى هو «كل شىء يجوز»، فى كل مكان بعد ذلك،

طبقًا لعبارة كونستانتين ڤون بارلوين «نحن نحوز الآن ثقافات متعددة الألوان، وكلها متفاعلة بعمق مع بعضها البعض».

٣ـ السلام الروائى (الخيالى)

لم يقدم شيئًا العون لإحلال ما بعد الحداثة محل الحداثة، مثلما قدمت لاعقلانية الحروب المتواصلة داخل ما يفترض أنه العالم المستنير. وكانت الدموية المفرطة للثورة الفرنسية، قد صدمت الأعداد الهائلة من الناس الذين تنبئوا بسلام دائم فى ظل عصر العقل، لكنه قدم ما هو أسوأ.... الاستعمار.

كانت الحرب الأهلية الأمريكية مذبحة ـ بما يتجاوز مسألة العبودية(*) ـ ثم جعلت كل من الحرب العالمية الأولى، والحرب الأهلية الإسپانية، والترويع الستالينى، والهولوكوست النازى، والحرب العالمية الثانية وحرب ڤيتنام(**)، بما فيها من استخدام الأسلحة الكيماوية والنووية ضد المدنيين، من القرن العشرين أكثر الفترات التى عاشتها البشرية دموية.

بالفعل، تنبأ تولستوى (مات ١٩١٠) فى رواية «الحرب والسلام» أن الحياة مستحيلة فى اللحظة التى يظن فيها الإنسان أنه يستطيع أن يقودها ويمارسها وفقًا لتوجيهات العقل الخالص.

عند الرجوع لمثل هذه الخلفية، كيف يتأتى لأى عاقل أن يدعى أن أوروپا وأمريكا هما رواد حقوق الإنسان، وأكثر الحضارات تطورًا، وموضع العقل؟ كيف لا يرى أى عاقل أن هذه الجرائم لانهائية الوحشية كلها ارتكبت خارج العالم الإسلامى؟ كيف يمكن لعاقل الاستمرار فى الاعتقاد أن الأخلاق بدون الدين تستطيع الوجود؟.

وهكذا، فبدلًا من أن يقوم الغرب «بإلقاء نظرة إلى الخلف على ما جرى» (لورد نورث بورن) باعتباره جزءًا من الماضى، «فدائمًا ما يعيد اكتشاف براءته المزعومة» (ريتشارد فولك). الولايات المتحدة بخاصة محصنة ضد النقد الذاتى ومستمرة فى التعامل كما لو كانت تملك

(*) استمرت ٦ سنوات، مات فيها أكثر من ستمائة ألف أمريكى، أى ما يقارب رجل من كل عشرة رجال فى سن القتال، وقد بدأ الحرب الولايات الجنوبية، والزعم بأنها كانت لتحرير العبيد مثل الزعم بأن الغزو الأمريكى للعراق هدفه نشر الديمقراطية فيه وفى الشرق الأوسط.

(**) مات فى الحرب العالمية الأولى والثانية ما يقارب مائة مليون قتيل، وأضعاف العدد مصابون، وتم تدمير آلاف المنشآت المدنية، وهما فى الحقيقة حربان أوروپيتان مسيحيتان، جرجرت فيهما أوروپا «فى الأولى» وأوروپا وأمريكا «فى الثانية» بقية العالم للحرب.

سجلًا ناصعًا لحقوق الإنسان، ذلك على الرغم من استغلال العبيد، والفصل العنصرى، وإبادة الهنود الحمر، والاستعمار! وكل هذه الجرائم ارتكبتها أيضًا الدول الغربية. وهكذا، يستخدم الغرب حقوق الإنسان «كأداة ضغط للسياسة الخارجية، بدلًا من وسيلة لإصلاح التخلف فى المجال المدنى» (ريتشارد فولك)، ويستمر الغرب فى سياسته الخارجية المبررة أخلاقيًا لتحقيق مصالحه، والمستعدة على الدوام لاستخدام القوة إذا تعرضت مصالحه للخطر.

على الرغم من أن كل حكومة إسلامية، هى حكومة تعتبر بالكاد ديمقراطيًا شرعية طبقًا للمعايير الغربية، فإن معظم هذه الحكومات يحصلون على درجة من الشرعية من الخارج، أى من الغرب (راشد الغنوشى).

لأن الإسلام يأبى الخضوع للحداثة بأمراضها الفتاكة، ولأهداء البشر بصفة عامة، يمكن للمرء القول مع (محمود رشوان) إن الولايات المتحدة والغرب، قد وضعا الإسلام على رأس «قائمة المطلوبين بشدة». ويندر فى الحقيقة الناس ذوو الفكر الثاقب، الذين فقدوا إلى الأبد ثقتهم فى بركات الحداثة.

لم يعد المجتمع الغربى ينعم بالسلام. وصل مستوى العنف فى المدارس الثانوية الأمريكية حدًّا مرعبًا. المراهقون المسلحون تسليحًا ثقيلًا، ويقومون بمذابح ضد زملائهم داخل المدارس، لا يمثلون إلا قمة جبل الثلج الغاطس. يتغذى معظم ذلك بالتأكيد، من كمية العنف غير المعقولة، التى تشاهد يومًا بعد يوم، فى التليفزيون. وأخيرًا، ماذا تدور حوله معظم ألعاب الكمبيوتر؟ القتال، وإطلاق النار، والقتل(*). وبالطبع، فإن الإعلام ليس هو فقط السلاح الرئيسى فى مشروع الحداثة، لكنه أيضًا هو المتهم الرئيسى.

٤ ـ حافز الربح

حيث إن العثور على السعادة أصبح فى المشروع الغربى يقبع بشكل رئيسى فى استهلاك السلع المادية، تلتصق كل مظاهر الحياة الغربية بالاقتصاد، وانتقلت أيضًا قوانين الاقتصاد إلى المجالات الأخرى بالمثل، بما يشمل الأسرة.

الرأسمالية، كما بشر بها آدم سميث عام ١٧٧٦ فى كتابه «تساؤل عن طبيعة وأسباب ثروة

(*) هل يمكن القول بأن حروب الولايات المتحدة التى لا تنتهى منذ قيامها إلى الآن تستلزم نشر ثقافة العنف وإسالة الدماء حتى يتقبل الشعب الأمريكى تلك الحروب، وحتى يجد الجيش الأمريكى المقاتلين فى صفوفه؟

الأمم»، وبفضل مجهودات جيرمى بنثام، وچون ستيوارت ميل قد أصبحت نفعية بشكل قاطع فى القرن التاسع عشر، وفقًا لتعريفهما «الخير هو النافع والفعال فى الحصول على أقصى درجات السعادة، عن طريق إنتاج أقصى كمية من البضائع، لأكبر عدد من الناس». السعادة للعالم لم تكن بالطبع تعنى الاستعباد الدائم للإنسان. أصبح الإشباع المادى للإنسان فى الجنة الأرضية هو نهاية المطاف. فى هذا السياق، تتحول الرفاهية السابقة إلى ضروريات، ويجد الإنسان نفسه فى حلقة متفاقمة لانهائية من عدم الرضا. «عصر الكم» (رينيه چينو) قد استقر. أصبح الكم والإدراك الحسى للأشياء، هما فقط ما له الاعتبار.

وفى الواقع، النفعية هى التى قادت إلى الغلو الذى أنجب الماركسية. وكما رأينا، فقد تنبأ ماركس أن الرأسمالية، بدون التصحيح، سوف تدمر نفسها، ويبدو من قيام الشركات العملاقة، وفترات الكساد الطويلة أنه على حق.

بعد ذلك، طور لورد مايناردكينز تدخل الدولة فى السوق، وأدخلت الأحزاب الديمقراطية التشريعات، التى وفرت للرأسمالية الاستقرار، ومزيدًا من الإنسانية، عما ظن ماركس إمكان حدوثه.

وحتى البلدان غير الشيوعية مثل فرنسا والسويد، فقد أخضعت اقتصادياتها لتخطيط شامل من الدولة. ورغم ظهور تداخل دورات التضخم والكساد، رفعت نقابات العمال من مستوى الأجور حتى عندما ارتفعت معدلات البطالة، وأعلنت بذلك هاتان الظاهرتان موت الكينزية.

يتزايد هذه الأيام النقد للرأسمالية. هل بوسعها المحافظة على النمو إلى ما لا نهاية؟ المساواة التامة ستكون على حساب الحرية، هذا معلوم الآن، ما هو حد اللامساواة الذى يمكن التجاوز عنه؟ ألا يؤدى النمو المستمر إلى تدمير البيئة، وتبديد الموارد الطبيعية غير القابلة للإحلال؟ ألا يؤدى ارتفاع نسبة ثانى أكسيد الكربون إلى ارتفاع حرارة الغلاف الجوى إلى الدرجة التى تؤدى إلى هجرة الحياة من الأرض؟

قد تكون الرأسمالية هى الأفضل بين النظم التى حاولت حتى الآن إمداد الجنس البشرى بالبضائع الكافية ذات الجودة، ووفرت للأفراد الاختيار الحر والفرص. ولكن حتى هؤلاء الذين يرونها بهذه الطريقة، بدءوا فى التساؤل: هل تكون الرأسمالية مجرد مصادفة، فى حصاد التاريخ الطويل؟

يتزايد النقد للرأسمالية الآن كنظام صالح بخاصة على ضوء التفاوتات فى الدخل الآن. ٢٠٪ أصول أغنى ثلاثة رجال فى العالم، وكلهم بليونيرات بالدولار، تتعدى الناتج القومى العام لكل الدول الأقل نموًا التى يبلغ تعدادها ٦٠٠ مليون مواطن. بينما يحصل ١,٣ بليون نسمة على سطح هذا الكوكب على أقل من دولار واحد فى اليوم للإنفاق، يقدر دخل الجريمة المنظمة بمقدار ١,٥ تريليون دولار أمريكى (أكرر: تريليون) كل عام.

المرض العضال ينتشر داخل قلب العولمة. يمكن للمرء أن يلاحظ التباعد بين الرأسمالية على الأسلوب الأمريكى، ونظيرتها بالأسلوب الأوروبى، مما يؤشر بحدوث تناقض. الحضارة الأمريكية تتبنى المواجهة، كما فى المحاكم وأيضًا فى منافسة السوق، بينما الأوروبية ذات توافق جماعى، وتغذى مزيدًا من التوقعات المتجاوزة للمادة من الحياة.

ومع ذلك، ففى القارتين، فإن المستهلكين وحاملى الأسهم يلحون باستمرار على الأحدث والأرخص من المنتجات، وبذلك يولدون ضغطًا هائلًا نحو التقليل من تكلفة العمالة، ومن حماية البيئة (مما يولد المزيد من العولمة).

الإنسان الذى يسعى باستمرار لتملك المزيد (حامل الأسهم)، والذى يريد أن يدفع أقل (المستهلك)، سيؤدى فى النهاية إلى تعرضه شخصيًا للبطالة. وعندما يطبق الاقتصاد «المنطق» الخاص به، فقد يؤدى ذلك بالإنسان «إلى الاحتراق بواسطة حضارته الشخصية» (أرنولد جيهن). بالمثل مثلما حرر الإنسان نفسه من سلطة الله سعيًا وراء المتعة، فإن الاقتصاد والحضارة، قد يحرران أنفسهما من سلطة الإنسان (روديجر سافرانسكى).

أشار (تشيستيرتون) مرة، إلى «أن عاقبة عدم الإيمان بالله، ليست هى أن المرء لا يؤمن بشىء». يقينًا، سيصبح المرء عرضة للإيمان بأى شىء. أحد هذه الآلهة الدنيئة هو الثروة المالية. لقد كرست المجتمعات البورجوازية لنمط السلوك القائم على الحسد مع الوضع فى الاعتبار أن «الإنسان لا يرغب فى أن يكون غنيًا، بل يرغب فى أن يكون أغنى من كل الآخرين» (چون ستيوارت ميل).

مع عولمة الاقتصاد، فإن حجم الأموال الدائرة حول العالم، قد بلغت أكثر من عشرات المرات قدر الأموال الناتجة عن بضائع فعلية وإنتاج حقيقى.

ويستطرد (ريتشارد فولك) من جامعة پرينستون موضحًا، لم يعد الغرب حيزًا جغرافيًا، بل ظاهرة كونية. تدار العولمة بمؤسسات لا تحصى، بالغة الضخامة ومتعددة الجنسيات، أى «لاعبين عالميين» يضيقون الخيارات السياسية للمجتمعات الغربية إلى الحد الذى تصبح

معه السياسة «تدار برأس المال بدلًا من أن يديرها الجمهور». قد يؤدى ذلك إلى انهيار فى «الديمقراطية الاجتماعية» بصورتها المعروفة فى ألمانيا، وبريطانيا، والدول الإسكندناڤية.

٥ـ الإعلام كضفيرة من المعلوماتية والتسلية (المعلوتسلية)

الإنسان المعاصر خطر محتمل إلا إذا انشغل. هناك صناعات متكاملة تعمل على شغل ساعات فراغه، وذلك لحرمانه من أية فرصة للاسترخاء، أو التأمل، أو التفكير بعمق، أو الصلاة فى هدوء. وفى الواقع، يجب على الدوام إثارة غرائز الإنسان المعاصر. وحتى عطلاته، ينبغى تحويلها إلى مغامرات، يشرف عليها محترفون فى التسلية. ولا عجب، فلكى يتم ذلك، يجب أن يخلط الإعلام المعلومات بالتسلية، من أجل اصطياد الزبائن على الدوام، وبالتالى يقعون فى شراك «المعلوتسلية».

لقد قيل الكثير عن هذه الظاهرة، والظواهر غير الكريمة الأخرى للإعلام. والواقع، فمستواه لا يترك أى إنسان على طبيعته؛ لأن المرء ينحو ناحية أن يصبح «هو ما يراه»، فيما يسمى بذكاء «التحليل النفسى المعكوس» (ويليام أوفالس). أخبرنى عن قنواتك التليفزيونية، وسوف أخبرك من أنت.

تكمن الخطورة فى الحقيقة فى أن وجهات النظر الأيديولوچية المعتبرة من قِبَل الغالبية من الصحفيين فى الغرب، لا تمثل بالكلية المعتقدات السائدة بين الجمهور. وفى المتوسط، فالغالبية العظمى من الصحفيين، فيما يزيد عن النسبة بين المواطنين، هم ملحدون، ويميلون لليسار، وإباحيون.

هناك ـ بالطبع أيضًا ـ برامج تليفزيونية ذات مستوى رفيع، وأيضًا مجلات وجرائد. ومع ذلك، فكما تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة من السوق، كذلك فإن المنتجات الإعلامية الهابطة تستحوذ على النصيب الأكبر من المشاهدين. لذلك، فحتى القنوات الإسلامية الأكثر احترافية لن تكون أبدًا ذات جدوى اقتصادية؛ حيث إنها تتجنب الجنس، والعرى، والجريمة، والإثارة. الأخبار الطيبة فى عرف الإعلام ليست بأخبار، بينما الأخبار المثيرة هى الأخبار المفيدة.

إذا كان هناك احتياج لدليل إضافى على اللاأخلاقية البنيوية لهذا الوسط، فهذا ما توفره برامج «تليفزيون الحقيقة ـ Reality TV». بهذه البرامج الشديدة السفاهة مثل «العالم الحقيقى ـ The Real World»، «الأخ الكبير ـ Big Brother»، «تليفزيون التجسس ـ Spy TV»، «جزيرة الإغراء ـ Temptation Island»... أطلق التليفزيون الأمريكى ولعًا مهووسًا أمسك

بتلابيب المشاهدين فى كل العالم. بعض هذه البرامج تشبه الدعارة (ولكن على الملأ)، والدخول فى علاقات مختلطة غير قانونية. أصبح معدو البرامج التليفزيونية مثل القوادين!.

يتساوى فى الخطورة مع التغذية الإعلامية للإفقار الروحى للجماهير، الاتجاه المتزايد للمشاهدين نحوها.

تجاوزت وسائل الإعلام المعاصر كل الحواجز الموضوعة لحماية الدول ذات الأيديولوچية والمجتمعات المنغلقة، مثل الصين، وكوريا الشمالية، والمملكة العربية السعودية، من تأثيرات الأنباء وأيضًا الثقافات. ينبغى على الدول الإسلامية أيضًا تغيير إستراتيچياتها لحماية تراثها الإسلامى. الفكرة تكمن فى تحصين الناس، من خلال التعليم المناسب، ضد تأثيرات الأفكار الضارة، وليس من خلال محاولة عزلهم المادى عن التعرض لها.

٦- التعليم كعقيدة فكرية (أيديولوچيا)

على الرغم من أن التعليم عادة ما يكون مسئولية محلية، أو على أقصى تقدير، يدار على مستوى الدولة، فإن المعالم الرئيسية للتعليم هى واحدة فى الغرب بكامله. تلعب العلمانية هنا دورًا حاسمًا: تدرس كل الموضوعات كما لو أن الله غير موجود، على الرغم من أنه فى دروس الفلسفة قد يتم الإقرار بأنه لا يمكن الرهان على عدم وجوده، فالواقع أن التعليم ملحد ومادى، بغض النظر عما وصلت إليه الفيزياء الحديثة من أفلاطونية.

الحصص الاختيارية فى الدين، قد تكون ساعة أسبوعيًا، لا تفعل إلا اليسير ضد هذا التيار الذى يزرع الإلحاد، وعلى المستوى العاطفى يبدو من الصعوبة بمكان أن تجتذب التلاميذ للإيمان. ومهما كان عدد الحصص، فما فشلت العائلة فى الوصول إليه لنشر الدين، لا يمكن للمدرسة أن تفعله.

سيكون الطالب الغربى، الذى يتم المرحلة الثانوية على اقتناع بالتالى:

- إن الله، على أقصى تقدير، هو افتراض، ولكنه غير ذى صلة بحياته على أى مستوى.
- الكون أبدى.
- ظهرت الحياة تلقائيًا.
- تطور الإنسان بالانتقاء الداروينى صعودًا من القرد.

• سوف يقدر الإنسان عاجلًا أو آجلًا، على تفهم الكون، والمخ الإنسانى، ويتمكن من خلق الحياة.

• لا معنى وراء الوجود.

• تمثل الأديان مرحلة بدائية وسحرية من التطور الاجتماعى. وهى عرضة للاختفاء، مثل كل الأحكام السابقة غير العلمية.

يستطيع المرء بسهولة أن يرى أن تراكم كل ذلك أدى إلى نظرة كونية متسقة، رؤية أيديولوچية للعالم تدين بالكثير لأفكار القرن التاسع عشر، أكثر منها لاتجاهات القرن العشرين. وفيما يشبه المعجزة، وفى مثل ذلك المناخ العقلى، فإن أفرادًا من الناس، يجدون بشكل متكرر، طريقهم إلى الإسلام.

٧ - الثورة الجنسية

مرت بالإنسان خلال القرنين الأخيرين الكثير من الثورات، أضخمها أثرًا وأطولها بقاء هى على الأرجح الثورة الجنسية التى قامت فى الغرب بعد الحرب العالمية الثانية. بدا الجنس لفترة من الوقت، وكأنه أصبح البديل الأول للدين، هاديًا بأنبيائه الذى يبشرون بالحرية الجنسية، بمعنى التحرر من الكوابح مفردة كانت أو كلية، والتى ساعدت تقليديًّا على الحد من غريزة الجنس الفائقة القوة.

الأشهر من بين أنبياء الجنس كان ويلهم ريتش (مات ١٩٥٧)، هربرت ماركيور «أخصائى الجنس»، ألفريد س كينزى (مات ١٩٥٦). أصبحت كتب مثل «تقرير عن السلوك الجنسى للإنسان الذكر» لكينزي(١٩٤٨)، والتقرير المماثل عن السلوك الجنسى للنساء (١٩٥٣) فى أمريكا معيارية؛ لأن كل شخص يريد أن يكون «طبيعيًّا». ما هو «الطبيعى»؟ قام كينزى بتحديده على أساس ما يقارب ٢٠,٠٠٠ عينة. الكتب التى أصدرها ماسترز وچونسون عن «رد الفعل الجنسى» ظهرت فى نفس الوقت، وجاءت بنفس الأثر.

أصبحت الآن العادة السرية، والجنس ما قبل الزواج، تبادل الزوجات، الجنس فى الشرج، والجنس المثلى، ومشاهد العرى، والدعارة، أصبحت كلها مقبولة، وتتكرر كموضوعات رئيسية خلال تبادل الحديث، كما تجتذب الإعلام. الجنس مع الأطفال هو الوحيد الذى استمر من المحرمات (تابو)، التى لم تحل دون التجارة الضخمة لعرى الأطفال، وأيضًا من

خلال الإنترنت. إن ظهور العرى على أغلفة المجلات أصبح متواصل التكرار، وصار من شبه المستحيل بيع أى شيء بدون رموز للجنس فى الإعلان عنه.

بلغ البغاء الذي أخذ فى التفاقم من نصف قرن مضى مستويات جديدة من الإنجاز. لقد سمح فى بعض البلاد لمحترفى البغاء من النساء بتكوين نقابات على أنهن «عاملات جنس»، وقد حصلوا على الاعتراف الرسمى على أنهن من المهن العادية دافعة ضرائب الدخل. وفى ألمانيا منذ عام ٢٠٠١، يحصل الأزواج من الشواذ على شرعية التسجيل المدنى، وبذلك يتمتعون بمعظم امتيازات المتزوجين. يدفع مكتب الخارجية الألمانية حاليًا بشكل روتينى مصاريف انتقال وإسكان هذا النوع من «رفقاء الحياة»، بالضبط كما لو أنها لزوجات الدبلوماسيين المعتمدين. وفى الحقيقة، حاز تعبير «رفيق هذه الفترة من حياتى» القبول.

الثورة الجنسية، التى عُبدت مثل العجل الذهبى، لم تقدم بالطبع الحل لأى مشكلة تتعلق بالوجود، والأسوأ، قامت على افتراض مساعدة النساء على التحرر، وأن يصبح لهن السيادة على رغباتهن الجنسية، ولكن أصبح من الجلى أن النساء هن الضحايا الرئيسيات للثورة الجنسية!. فكما سبق الحال، استمرت مربوطات إلى أطفالهن، ولكن «كأمهات بدون أزواج» عندما يهرب الأب أو الصديق. ومثل ما سبق، استُغل عريهن للأغراض التجارية. وكالسابق، كان الرجل مرة أخرى هو الأوفر ربحًا من الجنس غير الشرعى، وافتقاد الروابط العائلية، بينما الخاسر الأكبر فى العلاقة هو الذى يتحمل الطفل، أى المرأة.

ورغم ذلك، فإن التجارة فى النساء كرقيق لم تختف. يصل إلى أوروبا ما يقارب نصف مليون امرأة سنويًا، قادمات من أوروبا الشرقية وأفريقيا وآسيا، بما يقارب قيمته ٧ بلايين دولار أمريكى فى العام.

على الرغم من ذلك، ينبغى ألا نغفل النظر عن المبدأ القانونى بالمساواة بين الجنسين، الذى صار فى مرتبة المبدأ الجوهرى فى حقوق الإنسان، قد أتاح لمعظم النساء التقدم المهنى. وواقعيًا فإن كل المهن، بما فى ذلك العسكرية وفى الشرطة، وقيادة التاكسى والسياسة، أصبحت الآن متاحة أمامهن، بما يساعدهن على الوصول إلى تحقيق الذات، وإلى درجة من الاستقلال المالى لم تعرف من قبل.

لكن هناك أيضًا بعض من التأثيرات الجانبية التى لا يمكن غض النظر عنها. الاستقلال المالى جعل الطريق سهلًا أمام المرأة لطلب الطلاق. ورغم أن المنافسة ضد الرجال ـ بنفس شروطهم ـ

قد قدمت نوعًا من «سيدات الأعمال» الناجحات، اللاتى قد حصلن على كل شىء متاح أثناء خوضهن معركة مساواة الجنسين، لكنهن خسرن أنوثتهن. العقيدة الجامدة الآن هى أن الرجال والنساء، على الرغم من الاختلاف البيولوچى، هم متطابقون فى كل الوجوه الأخرى، وأيضًا من الناحية النفسية، والعاطفية، كذلك من ناحية الموهبة. الذى يجرؤ على مناقشة هذه العقيدة الجامدة، يتهم بالتفرقة الجنسية، وذلك هو أسوأ اتهام قد يلصق بأحد. أصبح الرجال والنساء يحاولون أن يبدوا متشابهين، ويرتدوا نفس الثياب، وأيضًا لهم نفس تسريحة الشعر. النتيجة المتوقعة لذلك، هو انهيار الانجذاب المعتاد تواجده بين القطبين المختلفين. لا اختلاف، إذًا لا إعجاب، ومن الناحية الأخرى فلماذا لا يمارس الرجال الجنس مع بعضهم البعض، والنساء مع بعضهن البعض؟.

هذا الموقف بالغ السوء على ما هو عليه، لكنه يصبح أكثر سوءًا من خلال عدم التسامح الذى تبديه النساء العلمانيات، مصحوبات بالحماسة التبشيرية، مع «العقلية الاستعمارية الجديدة» (رشا الدسوقى)، فإنهن يسعين إلى إجبار أخواتهن حول العالم، خاصة النساء المسلمات، على تبنى أسلوب حياتهن، ونظريتهن فى الهوية الجنسية، بغض النظر عن الثقافة أو الدين.

تلقت الثورة الجنسية عونًا عظيمًا من توافر «الفرص» منذ الستينيات، عن طريق إزاحة الخوف من الحمل غير المرغوب، فقد حرم ذلك النساء من عذر كبير لمقاومة ممارسة الجنس غير الشرعى، كما أنه سمح أيضًا لعدد كبير من النساء لأول مرة على الإطلاق بالاستمتاع بقدراتهن الجنسية.

للحسرة، فقد قدمت هذه المرحلة حزمة جديدة من المشاكل: انتشار الأمراض المنقولة خلال الجنس، خاصة الإيدز. لا يعنى الجنس المنفلت الآن الحمل فقط، ولكن الموت أيضًا. حاليًا هناك ٣٣ مليون شخص يحملون ڤيروس مرض الإيدز (HIV). ما أتعس ناتج ما قد بدأ على أنه «التحرر».

٨ ـ انحطاط الأسرة

الضحية المباشرة للثورة الجنسية، والتى هى الأكثر استحقاقًا للأسى هى الأسرة. انهيار الأسرة الناتج عن الثورة الجنسية هو نذير شؤم فعلى على قرب انهيار الحضارة الغربية.

الذى حدث للأسرة فى الغرب لا يشكل مفاجأة لمن يتابع التوترات التى تعمل الأسرة فى ظلها. فى السابق، كانت الأسرة تكبح زمام الجنس بمنعه خارجها وممارسته داخلها. لقد اختفى كل ذلك، بالإضافة إلى أن التليفزيون يفتن كل ليلة المشاهدين بالرجال الآخرين والنساء

الآخريات، ويحض الزوجات داخل بيوتهن على الدخول فى المنافسة مع جماليات لعارضات مثل السراب، وهى منافسة لا يمكنهن بكل بساطة، الفوز فيها. عندما يصبح الجنس بضاعة تعرض فى السوق، فسوف تتحلل الأسرة، وذلك ما يحدث بمعدلات مخيفة. أرقام الطلاق تتصاعد فى كل مكان. والأسوأ من ذلك، المزيد والمزيد من الشباب يقررون عدم الزواج مطلقًا من البداية.

لا أحد يعانى بشدة بسبب انحلال الأسرة، أكثر من الأطفال. وهم يعانون إما من الإهمال الناتج عن ذلك، أو من المعركة الناشبة على حضانتهم، أو من استغلالهم مثل الرهن، فيتمزقون بين الولاء للأب والولاء للأم. النتيجة هى تصور معوج عن الزواج، وفى الأغلب لن يدوم زواجهم هم أيضًا.

الأطفال الذين تم تجاهلهم فى عائلات مفككة، يبحثون عن أصدقاء فى مكان آخر ـ فى عصابات، فى طوائف دينية، كما لا ينبغى أن نتعجب عندما يصبحون فريسة سهلة لإدمان المخدرات بداية من شم الكلة وانتهاءً بالهيروين.

انحراف الأحداث، وبخاصة الأولاد واتجاههم للعنف، والمزيد من الغضب، والعدوانية التى تجد المتنفس لها بين الناس، تولدت فى البيت، عندما لم يعد البيت، بيتًا على الدوام.

تذكر: بداية كل هذه الأمور كانت ثورة الجنس...

٩ ـ العدوان على الحياة

تحرر المرأة، الذى تم الحض عليه قبل وبموازاة ثورة الجنس فى الغرب، قاد إلى الادعاء بأن تلك هى الرغبة الحرة للمرأة بالموافقة أو الرفض على مسألة الحمل، كان الشعار هو «إن بطنى تخصنى»، أما عن حق الجنين فى الحياة، فيخفت تدريجيًا الحديث عنه. أصبح الإجهاض قانونيًا فى كل مكان تقريبًا، وعلى الأقل خلال الشهور الأولى للحمل.

وفى الوقت نفسه، ومع إمكانية تحديد جنس المولود فى مراحل مبكرة للغاية، فقد تزايد بشكل يثير الانتباه الإجهاض للتخلص من الجنين الأنثى، خاصة فى دول مثل الهند؛ حيث تعتبر البنات عبئًا اقتصاديًا أكثر من الأولاد. أيضًا انتشر فى كل مكان اعتبار الأطفال نذير خطر على مستوى الحياة المرغوب. وهكذا، فقد قامت صحيفة «الولايات المتحدة اليوم» بحساب تكلفة تربية طفل من الطبقة العليا حتى بلوغه الثامنة عشرة سنة بها بلغت قيمته ٢٤١,٧٧٠ دولارًا أمريكيًا. وهكذا، فإن الأطفال يتم استبعادهم فى سبيل اقتناء بدائل مثل بيت مترف فى أحد المنتجعات، أو قارب فخم مزود بوسائل الرفاهية.

أصبح أيضًا التشخيص قبل الولادة باحتمال وجود عيوب فى الجنين، مبررًا لقتل الجنين، حتى لو كان له خمسة شهور من عمر الحمل.

وحديثًا للغاية، فقد وسعت أبحاث خلايا الجذع من شقة الخلاف. من الناحية العملية، فإن خلايا الجذع الجنينى المنتجة من أجل الإخصاب الصناعى والأبحاث هى كلها مخلوقات إنسانية حية كامنة. تدمير الخلايا الزائدة عن الحاجة يعنى «إجهاضًا متكررًا».

ومع ذلك، فإن الرجل والمرأة العصريين ليسا فقط ملائكة للموت، فعندما يكون الأمر مناسبًا لهما، يتحولان إلى خالقين للحياة: الاستنساخ البشرى بدأ فى الظهور، هل تستطيع النساء القول «چيناتى تخصنى»، وتطلب استنساخ أزواجها المتوفين، أو أبنائها الذين فقدتهم مبكرًا؟ هل يسمح للمرأة بالحمل فى سن الستين؟ هل يسمح للرجل بالتصرف كخالق بالإنابة للحياة الإنسانية خارج عملية الإبداع الطبيعى الذى لا يجارى، صنيع الحب؟

بعض العلماء ـ بغض النظر عن قانونية الفعل ـ سيفعلون ما فى وسعهم دون الالتفات إلى أخلاقية الفعل. إن ذلك لا يعدو استعداء الله بغرور إنسانى مطلق. لقد استجاب الله لعناد إنسانى مشابه من قبل، وقد يفعل مرة أخرى.

١٠ ـ الإدمان البنيوى

أختم الحديث عن مبدأ اللذة المادى الغربى بفقرة صغيرة عن إدمان المخدرات؛ فذلك هو السمة الشخصية الغالبة على زماننا هذا. أظهرت تقديرات عام ١٩٩٥ أن تجارة المخدرات قد مثلت ما يقارب ٨٪ من التجارة العالمية.

عندما أذكر «مخدرات»، فأنا لا أشير فقط إلى المواد التقليدية مثل الحشيش، والكوكايين، والمورفين، والأفيون، وأيضًا الهيروين. كما لا يتوقف تعريف الإدمان عند المخدرات الماكرة، ذات الجماهيرية من خلال المشاهد الفنية. المناسبات من مثل مهرجان الحب السنوى البالغ الضخامة فى برلين، لا يمكن التفكير فيها ما لم تكن الأعداد التى لا نهاية لها من المشاركين بالرقص قد تعاطوا «الاكستازى». ولا يفى بالغرض أيضًا التركيز على التفاقم المتصاعد من إدمان الكحوليات، والسجائر، وتكلفتها الفلكية على المجتمع (فاتورة أوروبا من الكحول عام ١٩٩٦ بلغت ١٠٥ بلايين دولار أمريكى).

ومما يبعث أيضًا نفس القدر من القلق، ملاحظة امتداد الإدمان إلى مجالات أخرى مثل التليفزيون، والإنترنت، ومزيج المعلوماتية والتسلية (المعلوتسلية)، والهوس بالاتصالات التى

لا تنتهى عبر التليفون المحمول: ظاهرة أنه ينبغى على الناس مداومة التأكيد لبعضهم البعض على أنهم موجودون هناك.

كل هذه الظاهرات السلوكية إما تؤدى إلى إضلال عقول البشر، أو ملء الفراغ الداخلى الذى يشعر به الكثير منهم. يترتب على الاثنين حرمان الإنسان المعاصر من أن يتبين أنه كائن مخلوق، فى فترة انتقالية، ويجب عليه الاستجابة لخالقه.

يطغى ضجيج الإدمان على صوت الضمير الذى قد يذكر الإنسان المعاصر بهدفه الحق، وهو معرفة الله، والاحتماء تحت عباءة الخضوع له. تعطى كل أنواع الإدمان معنى زائفًا للحياة، وتبدو على هيئة حلول، بينما هى فى الحقيقة تمثل المشكلة الجوهرية التى يتظاهرون بإيجاد حل لها. إنهم يحرمون الإنسان من التدبر والتأمل اللذين يحتاج إليهما من أجل إقامة الروابط السامية.

علاوة على ذلك، فإن معظم المخدرات السامة ذات أثر مدمر من الناحية الجسدية؛ حيث يصبح الإدمان بالنسبة لهم بمثابة انتحار على مراحل. وفى العادة، يزعم مدمنو التدخين أنهم لا يضرون أحدًا إلا أنفسهم. ولا يعد ذلك فقط محل تساؤل عن التدخين السلبى المفروض بالقوة على الآخرين بدون إرادتهم، ولكن أيضًا بسبب التكلفة الاجتماعية للأمراض والموت قبل الأوان: إن المدخنين، ومدمنى الشراب، وكل الذين يتعاطون المواد السامة، إنما يدمرون ملكية لا تتبع لهم: هى هبة الله من الأجساد العفية والعقول الصافية النقية.

وفى محاولة لتلخيص الفصل بكامله

إن مبدأ اللذة الغربى الحالى بما أدى إليه من التفكك الأسرى، ومشكلة الجريمة، والتحلل الجنسى، والإدمان، الذى وقع معظم المواطنين فى حبائله ـ هو نتيجة مباشرة لانفصال الفكر الغربى عن ماضيه الدينى. إذا مات الإله، فكل شىء مسموح.

نعم، ما زالت هناك بقية من رصيد أخلاقى موروث من الماضى المسيحى، لكنه يتوارى بالتدريج، وأصبحت معظم القيم المجتمعية الجديدة مجرد تبرير عقلى للأهواء الشخصية. هم لا يستطيعون تثبيت قاعدة أخلاقية تقوم عليها حضارة جديدة.

الخلاصة: إن الغرب فى ورطة عميقة.

* * *

الجزء الثالث

الإسلام: الإجابة والحل

العالم الذى يراقبه الماركسيون، والليبراليون، والمسلمون، هو عالم واحد، كذلك أدوات الحس لديهم واحدة. إنهم يبصرون بالعيون نفسها، ويفكرون بالعقول نفسها. ومع ذلك، فإنهم يصلون ـ الكثير منهم بالأسلوب العقلى ـ إلى نتائج متباينة للغاية حول حدود الإدراك الحسى، وطبيعة الكون، وهندسته، وحول طبيعة ومصير الإنسان. إن نظرة المسلمين للعالم ذات ترابط وعقلانية مثل نظرات بعض الآخرين، لكنها تنفرد بتأسيسها على كتاب، ألا وهو القرآن، وسنة محمد بن عبد الله.

فيما يلى بيان العناصر التى تجعل من الإسلام بديلًا للنظرات الأخرى للعالم، التى سبق ذكر بعضها.

• الإيمان بالله

▪ وجود الله وذاته

داخل العالم الإسلامى، نادرًا ما يكون وجود الله وذاته موضوعًا للمناقشة. فذلك من القضايا المسلم بها. قدمت امرأة عجوز نموذجًا لهذا الموقف عندما قيل لها إن أبا حامد الغزالى (مات ١١١١ م)، قد قدم ألف دليل على وجود الله، فكانت إجابتها الخالدة: «وماذا بعد؟ ما لم يكن لديه ألف شك، ما كان عليه البحث عن ألف دليل»!.

يعود الغياب النسبى للنقاش حول وجود الله بين المسلمين، إلى يقينهم بأن الله فوق التصور، شديد المحال، أبدى، لا يحده مكان ولا زمان ـ لذلك فهو يتجاوز الفهم الإنسانى.

▪ الفلسفة غير الميتافيزيقية

لقد توصلوا إلى هذه النتيجة أخيرًا مع الفلسفة غير الميتافيزيقية للفيلسوف المسلم أبى الحسن الأشعرى (مات ٩٣٥م)، أى قبل إيمانويل كانت بوقت طويل. لقد وضع الأشعرى

نهاية صارمة للتخمينات الفلسفية للهلينستية الجديدة التى دخلت إلى الإسلام عن طريق المعتزلة الذين يمثلون مدرسة علم الكلام. لقد وصل المعتزلة بالفعل إلى الموقف الذى لا يمكن تبريره، بتعريض القرآن للنظر العقلى فى قضايا فكرية خلافية مثل أبدية العالم، وخلق القرآن، والاختيار والجبر، إلى الحد الذى يجعل اعتبار الحكم البشرى الخاص بهم هو المرجعية العظمى التى يجب أن تسود.

بفعلهم ذلك، فإنهم قد انتهكوا بعناد التحذير الوارد فى الآية السابعة من سورة آل عمران:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

على النقيض من تجربة المعتزلة، اختارت مدرسة الأشعرية قبول الصعوبة، أو الجوانب التى تخفى على الفهم (المتشابه) من القرآن، بقاعدة «بلا كيف، ولا تشبيه». بمعنى بدون البحث والتقصى ولا المقارنة فى هذا الصدد. باستخدام هذا التخمين النظرى المعرفى الفطرى (إذا لم نقل اللاأدرية العقلانية) وضع الأشعرية، ومن بعدهم الغزالى النهاية للماورائيات (ميتافيزيقيات) فى العالم الإسلامى ـ ٥٠٠ سنة قبل ظهور كانت، وألف سنة قبل ڤيتجنشتاين.

ما هو أكثر إثارة للإعجاب، هو إدراك الأشعرية لاستحالة الحصول على برهان استقرائى لقانون العِلِّية (السببية). وكان وصولهم إلى هذا الموقف متقدمًا بتسعمائة عام عن داڤيد هيوم. فى الحقيقة، يمكن اعتبار كارل پوپر أيضًا فيلسوفًا أشعريًا، بسبب أنه انتبه إلى عجز العقل عن إثبات صحة الفروض الأساسية للعلم.

وجه الغزالى ضربة قاضية إلى التخمين الميتافيزيقى، وإلى نظرية للوجود تقوم بالكلية على الحدس، عندما أدرك ـ أثناء أزمته الشخصية ـ أن مداركه العقلية كانت تقوده نحو نهاية لا يمكن تجاوزها. هنا، فإن الغزالى ـ أعظم علماء العقائد، والخبير القانونى (الفقهى)، ورجل الوقت فى الفلسفة ـ قام بتحول تام فى آرائه بإصدار كتابه التاريخى «تهافت الفلاسفة»، الذى ترجم إلى اللاتينية، والإنجليزية. فى هذا الكتاب، أشار الغزالى، بكل رضا، إلى أن كل الأنظمة الفلسفية المعروفة ـ بما فيها التى ليعقوب الكندى (مات ٨٧٣م)، ومحمد بن زكريا الرازى (مات ٩٢٣م)، وأبى نصر محمد الفارابى (مات ٩٥٠م)، وأبى على الحسين بن سينا (مات ١٠٣٧م)، تقوم على قواعد مفترضة وغير قابلة للتوضيح، وبذلك فلا يمكن الاعتماد عليها.

فى خطوة ثانية، امتد انتقاد الغزالى للعقلانية، ليشمل الرياضيات، والمنطق، وفلسفة

التشريع، وعلم الإلهيات أيضًا. لقد كثف من رؤاه فى سيرته الذاتية «المنقذ من الضلال»، التى تحوى «الاعترافات» الشهيرة عن محاكماته الذاتية المرهقة. على الإجمال، أنكر الغزالى قدرة أى علم على توفير البصيرة النافذة فى أية حقيقة غير محسوسة، وشدد على أن كل العلوم قامت على قواعد بديهية غير معصومة من الخطأ. الرياضيات، فى مفهومه، تتيح فقط نتائج دورانية متكررة لا تقدم مزيدًا من الوضوح. المنطق لا يحتوى قيمة معرفية أو إدراكية؛ حيث لا يمكن العثور على قيود صحيحة عامة ملزمة له. هكذا، فإن كل معارفنا عن العالم غير المرئى، ناتجة عن افتراضات لا يمكن إثباتها، وأيضًا:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

الدين ليس مسألة إقامة دليل، بل هو مسألة إيمان.

وفى النهاية، بعد أن فند العقلانية بأدلة عقلانية، أكد الغزالى على وجود طريق واحد إلى المعرفة: الحدس الصوفى. لم يكن وحده الذى وصل إلى هذه النتيجة. حتى ابن سينا ارتبط بالعرفان الصوفى المسمى «الفلسفة الشرقية». لكن دعنا ننصت أكثر إلى الغزالى:

«الإلهام هو حالة خاصة تكتشف فيها العين الداخلية.. الأسرار التى يستحيل على العقل الوصول إليها»، «أنا مدين فى حكمى، ليس إلى سلسلة الأدلة والبراهين، ولكن إلى النور الذى قذف به الله فى قلبى».

وهكذا، فقد وصل الغزالى إلى اليقين بوجود الله، وإلى صدق النبوة «ليس من خلال البراهين المحددة، ولكن بواسطة تداعى الأسباب، والظروف، والبراهين التى من المستحيل سردها».

هذا الطريق، بعد إغلاق الباب على التساؤل العقلى، تركه الفلاسفة المسلمون مفتوحًا بشكل شخصى للغاية، ومقصورًا على فئة قليلة للاقتراب من الحقيقة المطلقة. إيمانويل كانت، بيقظته الزائدة قليلًا، قد توصل إلى نفس النتيجة بالتسليم فى كتابه «نقد العقل العملى» بالله المطلق الذى لم يتمكن من إقامة الدليل عليه فى كتابه «نقد العقل الخالص».

إلى يومنا هذا، ظلت تلك هى الخلفية الفلسفية للإيمان ـ غير التخمينى للمسلمين ـ بوجود الله الأحد والواحد (التوحيد).

بالطبع، هناك فلاسفة مسلمون قد انحرفوا عن هذا الطريق الوسط من اللاأدرية العقلانية.

ابن رشد (مات ١١٩٨م) فعل ذلك، على الجانب العقلى، فى هجمته المضادة العنيفة فى عمله «تهافت التهافت» (ترجم إلى اللاتينية والإنجليزية). وأيضًا فعل ذلك محيى الدين بن عربى (مات ١٢٤٠م)، شيخ الصوفية الأكبر، من الناحية الروحانية (الغنوصية). لكن كل من هاتين المحاولتين العقلية، والجنب عقلية، كان لهما تأثير ضئيل داخل العالم الإسلامى.

كان لابن رشد ـ تحت اسم «أڤيروس» ـ تأثير أكبر على توماس الأكوينى والمدرسية المسيحية عمومًا، عن تأثيره على الأكاديميين المسلمين. وينطبق القول على ابن عربى، الذى أصبح كتابه «الفتوحات المكية» أكثر انتشارًا بين المستشرقين مثل هنرى كوربان، والصوفية الغربيين مثل فريثوف تشاون، ومايكل كيڤيكس، من انتشاره داخل دار الإسلام.

■ صفات الله

المناقشات عن الله داخل العالم الإسلامى، لا تركز لذلك على وجود الله، أو ذاته، وبدلًا من ذلك تركز على صفات الكمال المختصة به، كما أوحى بها القرآن، وجاءت فى السنة النبوية.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤].

يذكر القرآن الله باسم «الرحمن» مرارًا، وأيضًا «الرحيم». واختصت الآيات الثلاث الأخيرة من سورة الحشر بذكر أكبر عدد من أسماء الله الحسنى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

وجاء فى الحديث: «إن الله جميل يحب الجمال»، «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب».

وعمومًا، يقاوم المسلمون إغراء الانغماس فى التشبيه أو خلع الصفات البشرية على الله، فهم على وعى بأنه: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ٤].

وأنه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

فى الوقت نفسه، هم يحتمون بالأسماء، لكى يهربوا من موقف تصبح فيه صورة الله فى الدرجة القصوى من التجريد إلى حد فقدان المعنى، مثلما كان الحال مع كل من مدرسة المعتزلة الفكرية، والربوبيين الموحدين فى القرن الثامن عشر.

* * *

• الإيمان بالرسالة

هو من مقتضيات الإيمان بالله كخالق ورب للكون، والهادي لكل مخلوقاته.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

لا يمكن إنكار جواز النبوة منطقيًا، ما دام قد حصل اليقين بوجود الله.

حاجة البشر للنبوة واضحة. مثلما رأينا، فقد وصل العلم الحديث إلى حدود لا يمكن تجاوزها إلا بمساعدة فروض نظرية لا يمكن التحقق من صحتها. هل العمل بتصورات من مثل الانفجار العظيم، أو نظرية الأوتار الفائقة، أو فكرة الخلق الذاتى والتنظيم الذاتى للحياة، هو أكثر عقلانية من الإيمان بإمكانية وصول الرسالة المقدسة للجنس البشرى؟.

مع ذلك، يظل السؤال الرئيسى هو كيفية معرفة هوية النبوة الحقيقية، وليس هو إمكانية أو الحاجة إلى النبوة، وأيضًا تمييز النبوة من ادعاءات المحتالين من أمثال مسيلمة. يشهد المسلمون بإيمان بالله، وإيمان بكتبه ورسله، واليوم الآخر.

* * *

• الإيمان بالقرآن

ليس المقصود هنا تقديم كل الأدلة الفكرية، أو حتى الجمالية عن المصدر الإلهى للقرآن (ونبوة محمد بالتبعية). تقوم بعض البراهين على:

• الأساليب اللغوية المتفردة للقرآن، بالمقارنة بالشعر العربى والنثر قبل الإسلام.

• جمال التعبير.

• التركيب المثير للدهشة، متضمنًا التواؤم بين المضمون والصوت.

• الترابط الداخلي، والتطابق فى المضامين، حتى مع الاكتشافات العلمية الحديثة (القرآن هو النص المقدس الوحيد، الذى يخلو من الأخطاء التاريخية والعلمية).

• صدق إخباره بالغيب المستقبلي.

• نفاذه فى النفس البشرية.

• قيمه السامية المتجاوزة للزمان والمكان.

• عالميته التى لا تفضل أحدًا على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح.

• حكمته المتعالية على أى حكمة بشرية.

لقد بذل كلٌّ من أنجليكا نيوورث (برلين)، ونيل روبنسون (ليدز)، وأحمد على الإمام (الخرطوم) جهودًا مضنية فى إيضاح الأصلية، والتركيب المتجاوز، والمستعصى على النظير للقرآن الكريم. لكن غير الناطقين بالعربية، مع وجود بعض الاستثناءات الفريدة مثل محمد أسد، يمكنهم بصعوبة إتقان العربية الفصحى إلى الدرجة التى تمكنهم من الفهم الشكلى للقرآن، ورؤيته كمعجزة لغوية. لكن يمكن لكل شخص قبول حكمته من حيث بصيرته النافذة إلى عمق الطبيعة البشرية، وعالمية القيم التى يحتويها، وكذلك تجاوزها لحاجز الزمن، وجاذبيته للعقل البشرى، واتصافه بالكونية أيضًا.

مع ذلك، مثلما هى الحال دائمًا فيما يتعلق بقضايا الإيمان، فكما أن العديد من الناس يجتاحهم القرآن عند أول لقاء، فهناك منهم من لا يحرك فيه ساكنًا، الإيمان هو فى الواقع هبة من الله.

* * *

• المعرفة العلمية

أ ـ الإسلام والعلم

يبدأ الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب بقضايا الإيمان من أجل التوضيح الذى لا إبهام فيه، بأن نظرة الإسلام إلى العالم، تقوم جوهريًّا على الإيمان، الإيمان بالله، وبرسالة محمد، وبأن القرآن هو الوحى الإلهى، ذلك الإيمان لا يمكن الاستغناء عنه والركون لشىء آخر. من يرفض المغامرة الروحية للإيمان، لن يتسنى له تعويض ذلك باللجوء إلى العلم.

لا يعنى ذلك أن الإسلام يتخذ منحى سلبيًّا تجاه العلم، العكس هو الصحيح تمامًا! يشتمل القرآن على ما يصل إلى ٧٥٠ آية تحض الناس على دراسة الطبيعة، والتأمل فى وجودهم والكون من حولهم، وعلى أن يحسنوا استخدام عقولهم، مثل:

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٥].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ١٢٨].

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

لقد كرر القرآن كلمة العلم والعقل والنظر والرؤية التى بمعنى المعرفة مئات المرات.

فى الحقيقة، الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا توجد لديه أية مشاكل على الإطلاق مع العلم. ينظر المسلمون إلى الطبيعة على الدوام على أنها كتاب آخر، كتاب ثان من الله ينبغى قراءته وفك ألغازه، لذلك انتشر بينهم القول إن الكون هو كتاب الله المشاهد أو المُعَايَش، مقارنة بالقرآن الذى هو كتاب الله المقروء. وهم مقتنعون بأنه لا يوجد أى تناقض فعلى بين العلم بالإلهيات والعلم الدنيوى، بمعنى العلم بالإلهيات الذى لا يحل محل العلم الدنيوى، والعلم الدنيوى الذى لا يحل محل العلم بالإلهيات. وفى الحقيقة، فإن التناقض بين العلم الدنيوى والدينى فى الثقافات الأخرى، دائمًا ما كان تناقضًا بين المظاهر العلمية الزائفة للدين، والمظاهر الدينية الزائفة للعلم. حدوث أى تناقضات بين هذين المجالين من المعرفة، هو عادة يعود إلى الخطأ التصنيفى (كين ويلبر).

وفى نهاية الأمر، فقد كان العلماء المسلمون هم الذين أدخلوا «الملاحظة» و«التجريب» للظاهرة الطبيعية فى أدق تفاصيلها. هذان الأسلوبان كانا غريبين على منهجية المفكرين اليونانيين القدامى. وفى الحقيقة، فإن القوة المحركة للانفجار العلمى فى كل المجالات فى نشأة العلم الإسلامى وصعوده، كانت هى الحث القرآنى المتكرر على أن يستخدم الإنسان عقله، وأن يشاهد الطبيعة والكون ويتدبر، وأن يستخلص من ذلك النتائج والعبر.

بالتبعية، لم يكن هناك إحراق للكتب فى الإسلام. وكذلك لم يتعرض الأكاديميون للمحاكم والإحراق مثل ما حدث مع جاليليو جاليلى (مات ١٦٤٢م)، وجيوردانو برونو (مات ١٦٠٠م) فى العالم الغربى. فيما عدا الفترة القصيرة لمحنة استجوابات المعتزلة أيام الخليفة العباسى المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢م) فى بغداد، فلم تحاول السلطات الإسلامية فرض وجهات نظر فلسفية معينة.

لم يعش الإسلام التناقض المرير بين الكنيسة والعلم، الذى ميز تاريخ الفكر الغربى حتى بداية التنوير، وحتى تحقق انتصار الأسلوب العلمى التجريبى الوضعى، والذى يظهر فى الحداثة كما نعرفها فى أيامنا هذه. كما لم يحصد ثماره المريرة: أى الرفض الغربى المنظم للدين بواسطة العلم(*).

ب ـ أسلمة العلم

بينما يحتضن المسلمون العلم، بما يقدر على أن يعمله فى إطار القيود الخاصة به، فإنهم يناضلون ضد الرفض المعاصر لكل أنواع المعرفة التى لا تتحصل من خلال التجربة العلمية: الرفض لكل الحقائق التى لا تخضع للملاحظة، وبالتالى فهى ليست كمية، والتى يجمع المنطقيون الوضعيون والتجريبيون على نفيها بالقول بأنها غير محسوسة (حرفيًا: ليس فى المقدور فهمها) بما فى ذلك الحقائق الأخلاقية، والجمالية، والروحانية. بالنسبة للمسلمين، يتسم هذا المنهج بالاختزالية غير المقبولة؛ حيث إنه يستبعد الظواهر التى لا يعتريها الشك مثل الموت، والحب، والتراحم، كما يفشل هذا المنهج فى قبول «الحقيقة» فى الجمال الظاهر فى الطبيعة، والرياضيات «الأنيقة»، وأيضًا فى الفنون.

(*) الشجرة المحرمة فى الجنة ـ طبقًا لما جاء فى الكتاب المقدس هى شجرة المعرفة، ولذلك رفضت الكنيسة لقرون طويلة أى معرفة خارجة عن نطاقها اللاهوتى.

خلال جلسة عمل، فى عام ١٩٨٣، فى معهد ماكس پلانك للفيزياء والفيزياء الفلكية، فى ميونيخ، قام «سيد حسين نصر» بكثير من الفهم، بإيجاز ناتج الأيديولوچية العلموية بقوله: «لا يستطيع الإسلام أن يقبل... العلم المعاصر الذى قد يختزل ما وراء الطبيعة إلى علم النفس، وعلم النفس إلى علم الأحياء، وعلم الأحياء إلى علم الكيمياء، والكيمياء إلى الفيزياء، وبذلك يهبط بكل عناصر الحقيقة إلى المستوى الأدنى من التجلى وهو العالم الفيزيائى».

يرفض المسلمون هذا الاختزال الوضعى اليقينى، ويدافعون عن النظرة القدسية للعالم والتى تقوم على الروحانية، مقترنة بإمكانية الحصول على معرفة صحيحة من خلال الوحى الإلهى، لكنهم لا يرفضون الفكر الغربى، والثقافة الغربية، وأيضًا العلم الغربى بالجملة. فى الحقيقة، الحداثة نفسها وأسلوبها الصحى فى الشك المنهجى، وفى فك ألغاز الرؤية للكون ذات السحر - لا تمثل مشكلة للمسلمين (عبد الكريم سوروش). ما يعترضون عليه، هو الخداع المصاحب للعلم. إنهم متفقون مع لويس پاستور على أن «القليل من العلم يأخذك بعيدًا عن الله، لكن الكثير منه، يأخذ بناصيتك إليه جلّ وعلا».

بالطبع، يعى المسلمون أن العلم هو نشاط إنسانى، وبذلك فهو معرض لكل الأخطاء الإنسانية، وكذلك القيم المتغلغلة فى ثقافة رواده. ذلك هو السبب وراء أن مؤسس المعهد العالمى للفكر الإسلامى «إسماعيل الفاروقى»، وكذلك من جاء بعده «طه جابر العلوانى»، لم يصبهما الكلل مطلقًا من الدعوة إلى «إسلامية المعرفة»، بمعنى، متابعة العلم داخل إطار القيم الإسلامية.

لا يمثل ذلك دعوة للمسلمين لإعادة اختراع العجلة، ولا العودة للبداية من حيث ينبغى للعلم الإسلامى أن يكون يعنى ذلك، إن العلماء المسلمين الحقيقيين والأتقياء، انطلاقًا من حيث نقف الآن، ينبغى عليهم البناء التدريجى للنظرة الكونية الخاصة بهم. يواصل هؤلاء المسلمون استخدام الطرق الغربية المعتمدة فى الملاحظة، وجمع البيانات، لكن عليهم مداومة مراجعة الأسس النظرية التى شيدت هذه الطرق، مراجعة أقل على أسس البيانات، ومراجعة أكبر للافتراضات الأولية المادية.

* * *

٥ العلم الطبيعى

أ ـ القرآن والعلم

يمكن الاتفاق مع «موريس بوكاييه» فى قوله إنه لا يوجد فى القرآن ما يتناقض مع نتائج الأبحاث العلمية المعاصرة.

لكن لا يمكن الاتفاق مع ادعاء «ياسين كساب» فى كتابه «الألف حقيقة علمية للقرآن الكريم» بأن القرآن يشبه موسوعة علمية فى الفيزياء، والكيمياء، وأيضًا علم الأحياء، بوصفه مصدرًا للمعرفة العلمية. وللأسف، فقد انحرف بعض المسلمين تحت تأثير الغواية «للبرهنة» على صحة ذلك، مدّعين ـ على سبيل المثال ـ بأن القرآن قد احتوى على معرفة كل ما يتعلق بالكهرباء، واستكشاف الفضاء ونظرية الانفجار العظيم، وما شابه ذلك.

ينبغى ألا نفقد على الإطلاق النظرة إلى القرآن على أنه ليس معجمًا علميًّا، ولكنه رسالة إلهية عن دور الإنسان على الأرض، وكيف تنتظم حياته على أساسها، وتأسيسها القواعد الأخلاقية.

ب ـ الكونية

طبقًا للقرآن، فقد خلق الله العالم بالحق، ولإحقاق الحق:

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧، الأنعام: ٧٣، النحل: ٤٠، مريم: ٣٥، غافر: ٦٨].

ذلك يعنى أن الله خلق الكون من «العدم»، وليس لعبًا أو لهوًا ولم يجئ مصادفة.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ولكن لهدف: هو أن يخلق الله خليفته فى الأرض ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبذلك يُعرف الله الذى يستحق الحمد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢].

فى خطوة تالية، يوضح القرآن مجىء الكون للوجود عندما انفجرت مادة مكثفة للغاية:

﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وتلا ذلك ظهورها على هيئة غازات:

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١١].

يقول بأن الكون يتمدد:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

غالبًا ما يتحدث القرآن عن السماوات بصيغة الجمع - وفى بعض الأحيان عن سبع سماوات:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٨].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥].

يبين القرآن، بالطبع، أن الكون قد خلق لأجل محدود، لذلك فهو ليس أزليًا:

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف: ٣].

وفى الواقع، فإن القرآن المجيد يعج بالأوصاف الدرامية لموقف «الساعة»:

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١].

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

ومجمل سورة الزلزلة:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ..... وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ١ - ٨].

وعندما يصل العالم إلى نهايته التى تشكل كارثة كونية، فإن الله يقول:

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨].

كل ما سبق، يتطابق مع أكثر النتائج العلمية حداثة. لا يمكن لأحد أن يشرح نظرية الانفجار العظيم بدون حدوث فعل للخلق يسبقها. لا يمكن لأحد أن يلغى احتمال وجود عدة أكوان

أخرى، قد تكون من مادة مظلمة (سلبية)، ولا يلغي احتمال الانسحاق العظيم، بمعنى رجوع التمدد الكونى إلى الاتجاه المعكوس، أو الطى.

جـ- الفيزياء

(١) الذرة

ورثت الفلسفة الإسلامية نظرية من التراث الإغريقى: إن المادة غير قابلة للانقسام اللانهائى. وعلى الرغم من أن القرآن يستخدم كلمة «الذرة» كمرادف عربى، مرتين فى السورة التاسعة والتسعين (الزلزلة)، فإنه من قبيل المبالغة الزائدة فى التفسير، الادعاء بأن ذلك سبق يفوق فيزياء الجسيمات فائقة الصغر.

يعرف المسلمون أن جميع العوامل، فى كل من فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر، وفيزياء الأجسام متناهية الضخامة، توفر الاتزان الكامل لبعضها البعض، بدون أى نوع من الفوضى، وأن الحسابات الدقيقة المسئولة عن ذلك، توضح أن الكون بأكمله، نزولًا إلى الذرة المفردة، يخضع للسيطرة المطلقة لصانعه:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩].

أليس الأكثر بديهية هو وجود قوة واحدة ووحيدة - من وجود «صيغة حسابية للعالم» - والتى تجمع جميع القوى مع بعضها فى تناغم أى الله؟!

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧].

(٢) الضوء

الأكثر إثارة للإعجاب والانتباه، هو حقيقة أن الله فى سورة النور يقول:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨].

شبّه الله نفسه بالنور، وهى حقيقة من الأهمية بمكان إلى الدرجة التى تعلى من شأن الفكر الدينى الإشراقى الفلسفى للنور، الذى ارتبط بالصوفى شهاب الدين السهروردى المقتول (مات ١١٩١م)، والذى أطلق عليه بحق اسم شيخ الإشراق. كل ذلك قد يمثل رجع الصدى لحقيقة أن الضوء يلعب دورًا متفردًا فى الفيزياء بأنواعها.

(٣) العِلِّية (السببية)

يعتبر القرآن أن الله هو العلة الأولى لكل المخلوقات، والتى يقوم على رعايتها بلا سنة ولا نوم ولا لغوب، إلى درجة أنه:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

القرآن لا يصطدم بفكرة قانون السببية «المستقل والطبيعى»، لكن القرآن يؤكد لنا يقينًا، أنه على الدوام:

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وهو أسلوب أو طريقة الله. هكذا، فإن لنفس الملاحظات عن تسلسل حوادث معينة هناك تفسيرات مختلفة.

على ذلك، تختلف النظريات عن السببية، ولكن النتائج واحدة فى النهاية، والفضل يعود إلى ما ورد فى سورة فاطر:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

(٤) الكيمياء العضوية

لا يترك القرآن مجالًا للشك على مستوى أدق التفاصيل، فى أن الحياة قد خلقها الله، وأنها لم تتطور بمحض الصدفة. لم يتوافر برهان علمى على عكس ما سبق.

إضافة إلى ذلك، يشرح القرآن المجيد، أن الحياة بدأت من الماء:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

يتوافق ذلك مع علم الأحياء المعاصر(*).

❊ ❊ ❊

(*) ننصح القارئ الذى يريد التوسع قراءة: «مختارات من تفسير الآيات الكونية فى القرآن»، د. زغلول النجار، منشورات مكتبة الشروق الدولية.

• العلوم الاجتماعية

أ ـ الخطأ التصنيفى

كما رأينا من قبل، تكمن مشكلة العلوم الاجتماعية الغربية فى أنها تقوم على أساس مقدمات زائفة عن طبيعة البشر، اقترضتها من مادية العلوم الطبيعية. منذ أيام چون ستيوارت مل، فى عام ١٨٤٣، عندما طالب بتطبيق أساليب العلوم الطبيعية فى مجال العلوم الاجتماعية، ظلت الإنسانية تُدرس بنفس الأسلوب المادى، والاختزالى، والخالى من المعنى كما لو كانت فيزياء نيوتن.

وكان ذلك خطأ تصنيفيًا هائلًا.

الطرق التى ورثتها العلوم الاجتماعية من العلوم الطبيعية قد أحبطت بالفعل أى مجهود قام به علم الأنسنة (الأنثروپولوچى)، وعلم الاجتماع، وأيضًا علم النفس، لفهم الإنسانية. وكنموذج لذلك، فإن فحص ٣٠ مرجعًا رئيسيًا لعلم النفس عام ١٩٨٠، كشف النقاب عن خلو أىٍّ من هذه المراجع، من أى مرجعية للدين أو للعلوم الروحانية، دعك من ذكر الله (إبراهيم رجب).

فى الواقع، استوجب الأمر أولًا سقوط الفيزياء النيوتونية، ليتسنى للفيزياء الجديدة أن تطور مجالًا جديدًا أمام العلوم الاجتماعية الغربية، وليعترف أيضًا بدرجة من السببية الروحية، فى أبحاث المخ، وعلم الاجتماع، وحتى وضع العوامل العقلية الذاتية على مقربة من قمة هرم التحكم البشرى.

ب ـ الطبيعة البشرية

هدف الإنسان فى حياته، من المنظور الإسلامى، هو معرفة الله، وعبادة الله بحمل أمانة التكليف بالعمل كخلفاء على الأرض. لا يتفق هذا مع منظور أن الإنسان قد «ألقى» به إلى الوجود بشكل تراچيدى (هيدجر)، أو أنه قد ضل طريقه داخل القنوط الوجودى (سارتر)، ولا أنه حيوان ذو ذكاء، تتحكم فيه أدنى غرائزه (فرويد)، أو سطوة شهوة القوة (نيتشه). إنه بدلًا من ذلك، خليفة كرَّمه خالقه، يسمو إلى العزة والعدل والخلود، يحركه الأمل فى الحياة الآخرة، وربما يكون قد ألقى به داخل هذه الحياة، لكن لأجل قريب: العودة إلى بيته، إلى ظل خالقه فى فردوسه الأعلى.

التناقض بين هذه الصورة الإسلامية عن الإنسان، وصورته التى تعتنقها العلوم الاجتماعية الغربية، لا يمكن تجاوزه، لا مكان للحلول الوسط أو التصالح بين هاتين الصورتين.

الحيوانات، مثلها فى ذلك مثل الإنسان، كلها مخلوقات لله، وبوصفها من مخلوقاته فكل منها يتبع الأمة الخاصة به. الفرق أن الناس مكلفون، ولهم إرادة الاختيار.

* * *

• الأخلاق

أ ـ الإنسان هو كائن أخلاقى

الإنسان باعتباره كائنًا أخلاقيًّا، قد أوكلت إليه مسيرة من خلال طريق محدد (عقيدة تتبعها شريعة)، وأن عليه ألا يتعدى حواجز معينة (الحدود)، وكل ذلك من أجل نجاحه فى الدنيا والآخرة. وظيفة الشرع الإلهى هى أن يحيا الإنسان فى وئام مع خالقه، ونفسه ومجتمعه، وبيئته.

من الواضح أن العلم عاجز عن توفير مثل هذه المجموعة من القواعد لممارسة الحياة، وبحلول القرنين: التاسع عشر والعشرين، حاولت المذاهب الفكرية المتعددة توفير الأخلاقيات ـ مثل الفلسفة النفعية ـ الفلسفة المحافظة سواء فى أوروبا أو أمريكا ـ الماركسية ـ الرأسمالية ـ الفاشية ـ الليبرالية ـ وقد فشلت كلها جميعًا فى تجنب الكوارث الهائلة، وتشهد القرون الثلاثة الأخيرة بذلك، خاصة القرن العشرين.

وسط كل الأديان، الإسلام هو الدين الوحيد الذى يمهد للإنسان طريقًا متكاملًا للعيش، يسمح له وللمجتمع بأن يعيشا معًا فى رخاء، وفى توازن فريد. الباقية كلها إما تسحق فردية الإنسان، أو تحد من مسئولياته الاجتماعية، أو تستبيح الآخر، سواء كان ذلك آخرًا من ناحية اللون والعرق أو الدين.

ب ـ اقتصاد ذو وجه إنسانى

إن التطبيق الأمثل لذلك هو من خلال الاقتصاد الإسلامى؛ حيث إن هذا المجال العالى الفنية، يجب أن ينظر إليه أيضًا باعتبار مجموعة من الأخلاقيات على المستوى العام والمستوى الخاص. يشدد الاقتصاد الإسلامى على أن الهدف الأول والأخير للعمل يكمن فى الرفاهية المادية والروحية للإنسان ولمجتمعه، الاثنين معًا.

لذلك، فإن مسألة منع استغلال الإنسان للإنسان، هى فى حدها الأدنى إسلامية بقدر يماثل الاهتمام الماركسى. لا يطلب الإسلام نظامًا اشتراكيًا، ولا بالطبع شيوعيًّا، ولكن نظامًا إنسانيًّا لأن كل البشر أولاد آدم وحواء، فهم ليسوا فقط متساوين، ولكنهم إخوة. يُحرِّم الإسلام الظلم بصفة عامة، ويحرمه بصفة خاصة فى المعاملات المادية، فيمنع استغلال الفقراء والمحتاجين، ويضع شروطًا للتعاملات التجارية تمنع الخداع، وتمنع سطوة رأس المال فى الربح، سواء ربح الطرف المقترض أو خسر، وتمنع الاحتكار.

ويرى الإسلام أن الملكية الخالصة هي لله، وأن الله استخلف البشر فيما آتاهم من مال، أو سلطة، وعليهم أن يعملوا بها لصالح مجتمعاتهم، وفرض عليهم إقامة العدل الاجتماعى، والتكافل فى المصائب والأزمات.. وحرم الإسلام - كما حرمت اليهودية(*) والمسيحية - الربا:

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٩].

لذلك، يقترح علماء الإسلام ترتيبات للمشاركة فى الغنم والغرم (المشاركة فى الربح والمخاطرة).

قد يكون هذا الاقتصاد أقل إنتاجية من الاقتصاد الرأسمالى الخالص - وقد لا يكون! - لكن الأساس: أن الكفاءة وعائد رأس المال ينبغى ألا يصبحا غاية فى ذاتيهما، يود الإسلام قيام اقتصاد إنسانى.

جـ - الترابط الأسرى

يشدد الإسلام على الأهمية الجذرية، وبالتالى على قدسية الأسرة، باعتبارها اللبنة الأساسية

(*) حرَّم العهد القديم الربا، ولكن أضاف الكتبة أن ذلك ليس بين اليهود فقط، فجاء الأمر كالتالى: لا تتقاضوا الفوائد من بنى إسرائيل ... أما الأجنبى فأقرضوه بربا - التثنية ٢٣: ١٩ - ٢٠.

التى يتكون منها المجتمع، وبكونها الملاذ الآمن والحصين للرفاهية النفسية، والعاطفية، والمادية للزوج والزوجة والأولاد والأجداد، والأقارب. شركاء الزواج هم الدروع الواقية لبعضهم البعض:

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وينبغى توافر السكن والمودة والرحمة بين الزوجين:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

لذلك، فإن المسلمين على اقتناع بأن انهيار الأسرة - كما هى فى طريقها إلى ذلك فى الغرب - سوف يقود حتمًا إلى انهيار المجتمع، ما لم يمنع ذلك فى الوقت المناسب.

وفقًا للقواعد القرآنية، والسنة النبوية، يدافع المسلمون عن المثاليات من نوع العذرية، وتحريم العلاقات الجنسية خارج الزواج. هذا «الاتجاه المحافظ» يتوافق بشكل كامل مع ما كان يمثل القاعدة فى الغرب، حتى الحرب العالمية الثانية، باستثناءات.

يسمح الفقه الإسلامى بالطلاق:

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق: ١].

وذلك عندما تستحيل الحياة السوية، ويصبح الانفصال أفضل من استمرار الارتباط بزواج قد تحول إلى سجن لأحد الطرفين أو كليهما. لكن الطلاق يعتبر «أبغض الحلال إلى الله».

كان الشذوذ الجنسى دائمًا موجودًا، داخل الدول الإسلامية. لكن لم يسبق على الإطلاق إعلانه، أو الجهر به، والترويج له مثلما يحدث حاليًّا فى الغرب، وكأسلوب بديل للحياة، مقنن بروابط شبه زوجية بين المثليين. ينبغى على المسلمين مقاومة كل المحاولات للتبرير وللاعتراف المؤسسى للعلاقات الجنسية المثلية.

بالدفاع الصارم عن الأسرة، يساهم المسلمون بكل ما أوتوا من قوة فى منع المزيد من انتشار العنف، وتشريد الأطفال، وانحراف الأحداث (المراهقين).

د ـ العتق الحقيقى

لا توجد أدنى ذرة من الشك فى أن العديد من النساء المسلمات ما زلن محرومات من التمتع بحقوقهن التى كفلها لهن القرآن، خاصة الأميات، واللاتى تزوجن ضد رغباتهن، وغير القادرات على التحكم فى مهورهن أو حتى الحصول عليه. الكثير من المسلمات قد تم تحنيطهن بأسلوب مخالف للإسلام، وحرمن من لعب دورهن العام، الذى هن مؤهلات له. فى جميع الأحوال، ينبغى تحرير النساء المسلمات، وعتقهن من الاستبداد الذكورى، حتى يتسنى لهن خوض حياة فاعلة.

إنهن لن يتمكن من الوصول إلى ذلك بدون المنافسة مع الرجال، لكن ليس بادعاء التماثل بين الرجال والنساء بدلًا من المطالبة بالمساواة.

الفكرة هى التحرر النسائى داخل إطار الإسلام من استبداد الرجال، وليس التحرر مروقًا من الإسلام.

هـ ـ التكامل فى الجنس

• اتسم العالم الغربى بالتأرجح مثل البندول بين نهايتين متطرفتين:

• النظرة الدونية الكارهة للجنس، مثلما بشر بذلك القديس بولس، وطبقًا لسياسة الكنيسة الرسمية لمدة قرون طويلة.

• التحررية الجنسية، مثلما تبشر بها الثورة الجنسية فى القرن العشرين.

الإسلام، بطبيعته كدين للوسطية، يتميز بالحساسية لكل أنواع الغلو، لم يربط الجنس بغواية حواء لآدم بأن يأكل من الشجرة المحرمة، وبأنها مصدر الخطيئة الأصلية، والطرد من الجنة، وأنها رمز كل الشرور على الأرض، ولم يتورط فى تحليل الإسراف فيه، بل على العكس، فإن دافع الجنس قد نظر إليه المسلمون على أنه نعمة من الله، طبيعية، وأنه ليس مصدرًا للتكاثر فحسب، بل أيضًا للمتعة والحب المشترك، بالتبعية، لم يعرف العالم الإسلامى أيًا من الرهبنة بأسلوبها فى التدين الخالى من الجنس.

و ـ الانحياز للحياة

قد يعطى المسلمون الأفضلية للأم، فى حال ما شكَّل الحمل تهديدًا لحياتها، لكن الإسلام فيما عدا ذلك من حالات ينحاز للمحافظة على الحياة، حتى فى مراحلها المبكرة للغاية، بما يعنى فى مرحلة الخلايات الجنينية الجذعية. فى الوقت الذى أصبحت فيه شرعية الإجهاض مقبولة

فى كل مكان على وجه الأرض تقريبًا، وحتى الأساقفة الكاثوليك الألمان أصبحوا يعارضون البابا تجاه هذه القضية. تسترعى توجهات المسلمين المنحازة للحياة - بشكل لا يقبل التنازل - الانتباه. تعلم الحوامل من الأمهات المسلمات، أن الحياة التى تنمو داخل «بطونهن»، ليست ملكًا لهن يبيح لهن انتزاع نعمة الحياة التى وهبت لأطفالهن من الله.

ومن المثير للاستغراب أن نرى أن الممارسات النازية، مثلها مثل القتل الرحيم، الذى يطلقون عليه «التخلص من الحياة، التى لا تستحق العيش»، هو الآن مطروح بشكل موسع حتى داخل الأقطار «المسيحية» الديمقراطية.

ز- اليقظة (الانتباه)

ربما كان من أعظم إسهامات الإسلام لخلاص حضارته الخاصة وكذلك الحضارة الغربية، هو التزام المسلم باليقظة. تحرم الأديان الأخرى أيضًا إدمان الكحول، والتدخين المتفاقم. لكن لا يوجد بينها ما فيه من الصرامة مثل الإسلام فى تحريم تعاطى حتى أقل كمية من أية مادة، قد تؤدى عند الكمية الأكبر إلى التأثير على الوظائف الطبيعية للعقل. لذلك، نستطيع معادلة الإسلام باليقظة.

لا يعنى ذلك القول بأن عالم المسلمين يخلو من المخدرات، ولكن لا يوجد اختلاف بين المسلمين على حرمتها، ولا يتناولها أحد علنًا، ولا تقدم على مائدة العشاء بشكل روتينى، وعندما يشرب أو يتعاطى المسلم أى مخدر فإنه إنما يفعل ذلك بضمير غير مرتاح. إنه يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولذلك فإنه لا يملك الحق فى تدميرها.

* * *

• السياسة

بالنظر إلى الأوضاع السابق بيانها، يشعر العديد من المسلمين بالحمل الواقع على كاهلهم لتقديم الإسلام بوصفه الحل الناجح، إن لم يكن الدواء الشافى، لمعظم مثالب الحضارة الغربية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

هذه الجهود المبررة بشدة لا تعنى أن «الإسلام سوف يبتلع كل واحد منا» مثلما افترض د. بيت باخلين فى كتابه الذى يحمل العنوان الإنذارى باللغة الألمانية «الهجوم الإسلامى على

أوروبا». لكنها تعنى أن المسلمين فى الغرب، عندما يتجاوز نظرهم محيط مساجدهم، فهم على شفا الدخول إلى المسرح السياسى كلاعبين، لا يطالبون فقط، بل يملكون أيضًا ما يقدمونه للمجتمع بكامله:

- التحويل الروحانى من المادية إلى مثالية الحكمة العامة: رأس الحكمة مخافة الله.
- إنقاذ المنظومة الأخلاقية من «أى شىء يجوز»، إلى التمسك بالأوامر الإلهية، وعمادها «حب لأخيك ما تحب لنفسك»، «كلكم لآدم وآدم من تراب»، «إنما البشر سواسية كأسنان المشط».
- العدل والتضامن الاجتماعى بديلًا للفردية المتطرفة ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ...﴾ [المائدة: ٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، «لا يبيت أحدكم شبعانًا وجاره جائع»، «خير الناس خيرهم للناس».
- الأسرة المتحابة المترابطة:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ...﴾ [لقمان: ١٤]، «إلزمها (الأم) فإن الجنة تحت أقدامها»، من أحق الناس بصحبتك: «أمك ثم أمك ثم أمك، ثم أبوك».

- تحرير المرأة من شتى أنواع الكبت والاستغلال، وعلى رأسه الاستغلال الجنسى.
- اليقظة تحل محل الإدمان البنيوى.
- النضج البيئى، بدلًا من الاستغلال المنفلت للطبيعة.
- المناداة باقتصاد إنسانى، بدلًا من الاستغلال الرأسمالى.
- الشورى(*) أساس الحكم ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ...﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾ [الشورى: ٣٨].

(*) وقد ضرب النبى ﷺ أوضح الأمثلة فى مشاورته لأصحابه، حتى فى وقت الحرب، حتى عندما جاءت قريش لاستئصال المسلمين فى غزوة أحد، وجاءت الأحزاب لاستئصالهم فى غزوة الأحزاب، فقد شاور أصحابه ونزل على رأيهم، وهو الذى ينزل عليه وحى السماء.
واختيار الصحابة لأبى بكر كان تطبيقًا للشورى، ولم تألف البشرية اختيار حكامها إلا بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون.

ولا مناص من أن يتم ذلك بأقصى روح من التسامح تتيحها التعددية الدينية، والتى لا تتصرف بأسلوب شمولى أو انتقائى تجاه بقية الأديان:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [النحل: ٩٣].

وعلى الرغم من اقتناع المسلمين بأنهم أصحاب الدين القيم، وبالتبعية أصحاب الحلول الصحيحة:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

فقد وكل لهم فقط مهمة التنافس مع الآخرين فى وئام.

وإذا كان القرآن يعلن فى صراحة ووضوح ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ...﴾ [البقرة: ٢٥٦] فلا إكراه فى أى أمر آخر، سواء كان ذلك نظامًا سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا.

فيما يتعلق بالعالم العربى الإسلامى، فإن ذلك يفرض على المفكرين أن يكونوا أكثر تصميمًا على الدفاع عن التراث والعقائد الخاصة بهم، وإذا عرف المسلمون فى الغرب أن لديهم المبررات لمعارضة مادية ولا أخلاقية الحضارة الغربية، فما بالك بالكثرة الوافرة من المبررات التى لدى المسلمين القابعين فى قلب أرض الإسلام، لإزاحة السمات الضارة للإرث الاستعمارى وتبعاته وأعوانه بعيدًا عن أهلهم.

سوف تتمتع الدول الإسلامية بالحرية الحقيقية، فقط عندما يتمكن قادة الفكر لديها من فك رقابهم من الانبهار غير القابل للنقد بكل شىء غربى، وأن يعودوا للاغتراف من المصادر الثرية للثقافة الإسلامية الخاصة بهم.

ولقد حان الوقت لفعل ذلك.

* * *